الموسوعة التاريخية الميسرة الموسوعة التاريخية الميسرة

الشيخ أحمد مغنية

تاريخ العرب القديم

دار الصفوة
بيروت - لبنان


تاريخ العرب القديم



الموسوعة التاريخية الميسرة



تأليف

الشيخ أحمد مغنية



بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الصفوة

بيروت ــ بئر العبد ــ الصنوبرة ــ مقابل سنتر داغر ــ بناية دياب مهدي

ت: ٨٢٣٥١٨ـ٨٢٢١٦٧ـ ٦٠١٠٠٢
فاكس: ٠٠٩٦١١٦٠١٠١٩
ص.ب: ٦٣ / ٢٤

Tel: 823518 - 822167 - 601002
Fax: 009611601019
P.o. Box: 36/24

« ١ »

موجز أنساب العرب

اتفق النسّابون على أن الأب الأول للخليقة هو آدم (عليه السلام) ـ كما وقع في التنزيل ـ إلاّ أنّ هناك من ضعفاء الأخباريين ذكروا أن « الحنَّ ـ والطمَّ ـ » أمتان كانتا ـ فيما زعموا ـ قبل آدم . أما اعتمادنا على نقل أخبار آدم فهو المصحف الكريم ، وهو معروف بين الأئمة .

واتفق النسّابون أيضاً على أنّ الأرض عمرت بنسل آدم أحقاباً وأجيالاً بعد أجيال ، إلى عصر نوح عليه السلام وأنه كان فيهم أنبياء مثل : « شيث وإدريس » وملوك معدودون ، وطوائف مشهورون بالنِحَل مثل الكلدانيين ـ ومعناه الموحدون ـ ومثل السريانيين وهم المشركون .

واتّفق النسّابون أيضاً على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح ، ذهب بعُمران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمورة وهلاك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كلهم من نسل نوح (ع) ، وعاد أباً ثانياً للخليقة .

وهذا الأب الثاني هو أحد أبناء آدم ، واسمه الكامل : نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ، (عليهم السلام) أجمعين . ومعنى « شيث » : عطية الله ونقل ابن إسحاق أن أخنوخ هو : إدريس النبي (ص) . ووقع خلاف كبير بين علماء النسب في ضبط هذه الأسماء وهذا الخلاف إنما عرض في مخارج الحروف ، فإنّ هذه الأسماء إنما أخذها العرب من أهل التوراة ، ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب .

ثم اتّفق النسّابون ونَقَلَةُ المفسّرين : على أن وُلْد نوح الذين تفرعت الأمم منهم ثلاثة : سام . . وحام . . ويافث وأنّ يافث أكبرهم ، وسام الأوسط ، وحام الأصغر . فيافث أبو الروم ، وسام أبو العرب ، وحام أبو الحبش والزنج والسودان . وفي بعض الروايات أن : سام أبو العرب وفارس الروم ، ويافث أبو الترك الصقالبة ويأجوج ومأجوج ، وحام أبو القبط والسودان والبربر . هذا ما ذكره الطبري ، وابن المسيب ، ووهب بن منبه .

ونقل ابن إسحاق : أن سام بن نوح كان له من الولد خمسة وهم : أرفخشذ ، ولاوذ ، وإرم ، وأشوذ ، وغليم . فبنو أشوذ هم

أهل الموصل ، وبنو غليم أهل خوزستان ـ ومنها الأهواز ـ وكان للاوذ أربعة من الولد وهم : طسم ، وعمليق ، وجرجان ، وفارس . ومن العماليق أمة جاسم ، فمنهم : بنو لفّ ، وبنو هزّان ، وبنو مطر ، وبنو الأزرق ، وبُدَيل ، وراحل ، وظفّار ، والكنعانيّون ، وبرابرة الشام ، وفراعنة مصر . وكان طسم والعماليق وأُميم وجاسم يتكلمون بالعربية ، وفارس يجاورونهم إلى المشرق ويتكلمون بالفارسية .

ووُلْد إرم : عوص ، وكاثر ، وعبيل . ومن ولد عوص : عاد ، ومنزلهم بالرمال والأحقاب إلى حضرموت . ومن ولد كاثر : ثمود وجديس ، ومنزل ثمود بالحِجْر بين الشام والحجاز .

قال الطبري : وفهَّم الله لسان العربية عاداً وثمود وعبيل وطسم وجديس وأُمَيْم وعمليق ، وهم العرب العاربة . وكان يُقال : عاد إرم ، فلما هلكوا قيل : ثمود إرم ، ثم هلكوا فقيل لسائر ولد إرم : أرمان ، وهم النبط . وقال هشام بن محمد الكلبي : إن النبط بنو نبيط بن ماش بن إرم ، والسريان بنو سريان بن نبط .

وفي التوراة : أن عابر له اثنان من الولد هما : فالغ ، ويقطن ، وعند النسّابة المحققين أن يقطن هو قحطان عرّبته العرب هكذا . ومن فالغ : إبراهيم (ع) وشعوبهم . ومن يقطن شعوب كثيرة . ففي التوراة ذكر ثلاثة من الولد له وهم : المرذاذ ، ومعربه ، ومضاض وهم جُرُهم وإرم وهم حَضور ، وسالف وهم أهل السِلْفات ، وسبأ وهم أهل اليمن من حِمْيَر ، والتبابعة وكهلان وهدرماوت وهم حضرموت . هؤلاء خمسة ، وذكروا ثمانية أخرى لا داعي للتعرض لذكرهم .

« ٢ »

أحوال العرب في التاريخ القديم

١ ـ العرب العاربة :

قبل البدء بالكلام عن أحوال العرب نريد أن نشير إلى أنّ أخبار القرون الماضية الغابرة يمتنع اطلاعنا عليها لتطاول الأحقاب ودروسها ، إلاّ ما يقصّه علينا الكتاب العزيز ، ويُؤثر عن الأنبياء بوحي الله إليهم ، وما سوى ذلك من الأخبار الأزليّة فمنقطع الأسناد . ولذلك كان المعتمد عند الإثبات في أخبارهم ما تنطق به آيات القرآن في قصص الأنبياء ، أو ما ينقله زعماء المفسرين في تفسيرها وذكر أخبارهم ودولهم وحروبهم ، ينقلون ذلك عن السلف من التابعين الذين أخذوا عن الأئمة (ع) والصحابة ، أو سمعوه ممن هاجر إلى الإسلام من أحبار اليهود وعلمائهم أهل التوراة أقدم الصُحُف المنزلة .

فالعرب العاربة هي أقدم أمة من الأمم من بعد قوم نوح ، وأعظمهم قدرة ، وأشدهم قوة وآثاراً في الأرض ، وأول أجيال العرب من الخليقة . وكان لهم ملوك ودول . فملوك جزيرة العرب ـ وهي الأرض التي يحدّها بحر الهند جنوباً ، وخليج الحبشة غرباً ، وخليج فارس شرقاً ، وفيها اليمن والشحْر وحضرموت ـ امتدّ ملكهم إلى الشام ومصر . ويقال : إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام ، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيّمين ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وقصور ، إلى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان . وهؤلاء العرب العاربة شعوب كثيرة وهم : عاد ، وثمود ، وطسم وجديس ، وأميم ، وعبيل وعبد ضخم ، وجرهم ، وحضرموت ، وحضورا ، والسلفات .

وسمي أهل هذا الجيل العربُ العاربة ، إما بمعنى الرساخة في العروبيّة ، أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت هي أول أجيالها . وقد تسمى العرب البائدة بمعنى الهالكة ، لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم .

أما عاد وهم : عاد بن عوص بن إرم بن سام فكانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشَحْر . وكان أبوهم عاد أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر وُلْده . وملك بعده بنوه الثلاثة شديد وشدّاد وإرم . قال الزمخشري : إن شدّاد هو الذي بنى مدينة إرم في صحاري عدن ، وشيّدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد ، يحاكي بها الجنة لما سمع وصفها طغياناً منه وعُتُوّاً . ويقال : إنّ باني إرم هذه هو إرم بن عاد . ويقول ابن

خلدون في تاريخه : الصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم ، وإرم المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ هي قبيلة وليست مدينة .

« وذكر المسعودي : أن جيرون بن سعد بن عاد كان من ملوكهم وإنه الذي اختط مدينة دمشق ومصَّرها ، وجمع عُمُد الرخام والمرمر إليها وسماها إرم ، ومن أبواب مدينة دمشق إلى هذا العهد باب جيرون » .

ثم لما اتصل مُلْك عاد ، وعظم طغيانهم وعتوّهم ، انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب ، فبعث الله إليهم آخاهم هوداً مبشراً ومنذراً ، واسمه فيما ذكره المسعودي والطبري : هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد . وكان ملوكهم آنذاك : الخلجان ، ولقمان بن عاد بن عاديا بن صدا بن عاد ، فآمن به لقمان وقومه ، وكفر به الخلجان . وحبس الله عنهم المطر ثلاث سنين ، وبعثوا الوفود من قومهم إلى مكة يستسقون لهم ، وفيهم لقمان بن عاد ومرثد بن سعد بن عنز ، وكانا من الذين آمنوا بهود واتبعاه ، فتخلفا عن الوفود فدعوا في استسقائهم وتضرعوا ، وأنشأ الله السُحُب ، ونوديَ بهم أن اختاروا ، فاختاروا السوداء من السحب ، وأنذروا بعذابها فمضت إلى قومهم وهلكوا كما قصّه القرآن . وفي خبر الطبري : « أن الوفد لما رجعوا مروا بمعاوية بن بكر ، فلقيهم خبر مهلك قومهم هنالك ، وأن هوداً بساحل البحر ، وأن الخلجان ملكهم قد هلك بالريح فيمن هلك ، وأن الريح كانت تدخل تحت الرجل فتحمله ، حتى تقطعوا في الجبال ، وتقلع الشجر وترفع البيوت حتى

هلكوا أجمعون » .

قال المسعودي : أما عبيل وهم إخوان عاد بن عوص كانت ديارهم بالجحفة بين مكة والمدينة ، وأهلكهم السيل . وكان الذي اختط يثرب منهم وهو : يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل . وقال السهيلي : إن الذي اختط يثرب من العماليق وهو : يثرب بن مهلايل بن عوص بن عمليق . وأما عبد ضخم بن إرم فقال الطبري : كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك من ذلك الجيل . وقال غيره : إنهم أول من كتب بالخط العربي .

وأما ثمود وهم : بنو ثمود بن كاثر بن إرم ، فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام . وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال . ويقال : إن أعمارهم كانت طويلة ، وكانت بيوتهم تتعرض للبلاء والخراب ، فلذلك نحتوها في الصخر ، وفي بعض الروايات أن النبي مرَّ على بيوتهم في غزوة تبوك ونهى عن دخولها . وقال المسعودي : إن أهل تلك الأجيال كانت أجسامهم مفرطة في الطول والعِظم ، والبيوت المشار عنها في كلام الرسول (ص) تشهد بذلك .

وقيل : إن أقدم ملوكهم كان عابر بن إرم بن ثمود . فبعث الله النبي صالح (ع) مبشراً ونذيراً ، واسمه : صالح بن عبيل بن أسف بن شالخ بن عبيل بن كاثر بن ثمود . فدعاهم إلى الدين والتوحيد ، وكانوا أهل كفر وبغيٍ ، وكانوا يأخذون الأصنام أرباباً من دون الله ، فلمّا دعاهم إلى الإيمان جحدوا وطلبوا الآيات ، فخرج بهم إلى هضبةٍ من الأرض فتمخّضت عن ناقةٍ ـ وهي المعروفة بناقة صالح ـ ونهاهم أن

يتعرضوا لها بعقرٍ أو آذية ، ثم أخبرهم بعلم الغيب بأنهم سيفعلون بها ما نهاهم عنه . ولما طال النذير عليهم من صالح سئموا منه وهمّوا بقتله ، وكان يخرج إلى خارج البلدة حيث يوجد مسجد هناك ، فكمن له جماعة تحت صخرة في طريقه ليقتلوه ، فوقعت الصخرة عليهم وهلكوا ، فعلم بذلك أهلهم ، فمضوا إلى الناقة ورماها أحدهم بسهم في ضرعها وقتلها . فلجأ فصيلها إلى جبلٍ فلم يدركوه ، حتى رأى صالحاً ، فأقبل عليه ورغا ثلاث رغاآت ، فتخوّف عليهم العذاب وأنذرهم صالح ثلاثاً ، وفي صبح اليوم الرابع صعقوا بصيحة من السماء تقطعت بها قلوبهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، وهلكوا أجمعين .

وأما جديس وطسم ، فقال الطبري : إن طسماً وجديساً كانوا من ساكني اليمامة ، وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً وثماراً وحدائق وقصوراً . وكان ملك طسم ظالماً جبّاراً لا ينهاه شيء عن هواه ، يقال له : عملوق . وكان مضراً لجديس مستذلاً لهم ، حتى كانت البِكرُ من جديس لا تهدى إلى زوجها حتى تدخل على عملوق هذا فيفترعها .

وكان السبب في ذلك : أن امرأة منهم كان اسمها هزيلة طلّقها زوجها وأخذ ولده منها ، فأمر عملوق ببيعها ، فبيعت وأخذ زوجها خمس ثمنها ، فقالت شعراً تتظلم منه ، فأمر أن لا تُزوَّج منهم إمرأة حتى يفضَّ بكارتها . فامتثلت جديس لأوامر عملوق ، ودامت هذه الحالة حتى تزوجت الشموس وهي : عفيرة ابنة غفّار بن جديس ، أخت الأسود ، فافتضها عملوق ، فقال الأسود بن غفار لرؤساء

جديس : قد ترون ما نحن فيه من الذلّ والعار الذي ينبغي للكلاب أن تعافه ، فأطيعوني ادعكم إلى عز الدهر . فقالوا : وما ذاك ؟ قال : أصنع للملك وقومه دعوة فإذا جاؤوا ـ يعني : طسماً وملكهم عملوق ـ نهضنا إليهم بأسيافنا فنقتلهم . فأجمعوا على ذلك ، ودفنوا سيوفهم في الرمل ودعوا عملوقاً وقومه ، فلما حضروا قتلوهم فأفنوهم ، وقتل الأسود عملوقاً ، ولم ينجُ منهم إلاّ رباح بن مرة بن طسم .

فأتى رباح حسّان بن تُبّع مستغيثاً ، فنهض حسان في قبيلته حِمْيَر لنجدته ، حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل . فقال لهم رباح : إن لي أختاً مزوّجة في جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر منها ، وأنها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل ، وأخاف أن ترانا فتخبر القوم . فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها في يده ويسير كأنه خلفها ، ففعلوا ، وبَصُرت بهم اليمامة فقالت لجديس : لقد سارت إليكم حِمْير ، وإني أرى رجلاً من وراء شجرة بيده كتف يتعرقها أو نعل يخصفها ، فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به ، فما أحسوا إلاّ وحمير مصبحين بينهم شاهرين سيوفهم ، فأباد حسان جديس وخرّب حصونهم وبلادهم ، وهرب الأسود بن غفار إلى جبليْ طيء فأقام بهما . ودعا تُبّع ـ أبو حسان ـ باليمامة أخت رباح التي أبصرتهم فقلع عينها . ويقال : إنه وجد بها عروقاً سوداً زعمت أن ذلك من اكتحالها بالأثمد . وكانت البلد تسمى « جو » فسُمّيَت بـ « اليمامة » على اسم تلك المرأة .

وأما العمالقة فهم : بنو عمليق بن لاوذ . وبهم يُضرب المثل في الطول والجثمان . قال الطبري : عمليق أبو العمالقة كلهم أمم تفرقت

في البلاد ، فكان أهل المشرق وأهل عُمان والبحرين وأهل الحجاز منهم ، وكانت الفراعنة بمصر منهم ، وكانت الجبابرة بالشام ـ الذي يقال لهم : الكنعانيون ـ منهم . فالذين بالبحرين وعُمان والمدينة يُسمَّون « جاسم » . وكان بالمدينة من « جاسم » هؤلاء : بنو لفٍّ ، وبنو سعد بن هزال ، وبنو مطر ، وبنو الأزرق . وكان بنجدٍ منهم : بُديل ، وراحل ، وغفّار . وبالحجاز منهم إلى تيما : بنو الأرقم ، ويسكنوا مع ذلك نجداً . وكان ملكهم يسمى « الأرقم » .

وقال ابن سعيد : كانت مواطن العمالقة « تهامة » من أرض الحجاز ، فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بني حام ، ولم يزالوا كذلك إلى أن جاء اسماعيل (ع) وآمن به من آمن منهم . واستمر الملك لهم إلى أن كان منهم السميدع بن لاوذ بن عمليق ، وفي أيامه خرجت العمالقة من الحَرَم ، أخرجتهم جُرُهم من قبائل قحطان ، فتفرقوا ، ونزل بالمدينة منهم : بنو عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق ، فعُرفت به . ونزل أرض أيْلة ابن هومر بن عمليق واتصل ملكها في وُلْده . وكان السميدع اسم يُطلق على كل من ملك عليهم ، إلى أن كان آخرهم السميدع بن هومر الذي قتله يُوشع لما زحف بنو إسرائيل إلى الشام بعد موسى (ع) ، فكان معظم حروبهم مع هؤلاء العمالقة هنالك ، فغلبه يوشع وأسره ، وملك أريحا قاعدة الشام ، وهي قرب بيت المقدس . ثم بعث يوشع جيشاً من بني إسرائيل إلى الحجاز فملكوه ، وانتزعوه من أيدي العمالقة ملوكه ، ونزعوا يثرب ـ المدينة ـ وبلادها وخيبر ، ومن بقاياهم : يهود قريظة ، وبنو النضير وبنو قينقاع ، وسائر يهود الحجاز . ثم كان لهم

ـ أي للعمالقة ـ مُلْكٌ بعد ذلك في دولة الروم ، فملّكوا أُذينة بن السميدع على مشارف الشام والجزيرة من ثغورهم ، وأنزلوهم في التُخُوم ما بينهم وبين فارس .

ومن هؤلاء العمالقة فيما يزعمون عمالقة مصر ، وأن بعض ملوك القبط استنصر بملك العمالقة بالشام لعهده واسمه الوليد فجاء معه مَلِكُ مصر واستعبد القبط . قال الجرجاني : ومن ثم ملك العماليق مصر ، ويقال : إن منهم فرعون إبراهيم وهو : سنان بن الأشل بن عبيد بن عولج بن عمليق . وفرعون يوسف منهم أيضاً وهو : الريّان بن الوليد بن فوران . وفرعون موسى كذلك وهو : الوليد بن مصعب بن أبي أهون بن الهلوان . وكان الذي ملك مصر بعد الريّان بن الوليد ، هو : طاشم بن معدان . وقال غيره : إن أطفير كان وزير الريّان وهو العزيز ، وأنه آمن بيوسف ، وأن أرض الفيوم كانت مغايض للمياه فدبرها يوسف بالوحي والحكمة حتى صارت أعز الديار المصرية ، وملك بعد الريان ابنه دارم بن الريّان ، وبعده ابنه معدانوس فاستعبد بني إسرائيل .

وأما الكنعانيون : فذكر الطبري أنهم من العمالقة . والإسرائيليون يقولون إنهم من كنعان بن حام . وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها ، وكان معهم فيها بنو عيصو ، ويقال لهم : بنو يدوم . ومن أيديهم جميعاً ابتزها بنو إسرائيل عند المجيء أيام يوشع بن نون .

وأما أُميم فهم إخوان عملاق بن لاوذ . ويُذكر أنهم أول من بنى البنيان واتخذ البيوت من الحجارة ، وسقفوا بالخشب . وكانت ديارهم أرض فارس . وكان من شعوبهم وبار بن أميم نزلوا رمل عالج

بين اليمامة والشحر ، وسالت عليهم الريح فهلكوا .

وأما العرب البائدة من بني أرفخشد بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشد ، فهم : جُرْهُم ، وحضورا ، وحضرموت ، والسلف . فأما حضورا فكانت ديارهم بالرّس ، وكانوا أهل كفر وعبادة أوثان . وبعث الله إليهم نبياً منهم اسمه شعيب بن ذي مهرع فكذّبوه ، وهلكوا كما هلك غيرهم من الأمم . وأما جُرْهُم فكانت ديارهم باليمن ، وكانوا يتكلمون بالعبرانيّة . قال البيهقي : إن يعرب بن قحطان لما غلب عاداً على اليمن ، وملكه من أيديهم ، ولّى إخوته على الأقاليم ، فولّيَ جُرْهم على الحجاز ، وولي بلاد عاد الأولى وهي « الشحر » عاد بن قحطان فعُرفت به وولي عُمان : يقطن بن قحطان .

وأما حضرموت فمعدودون في العرب العاربة لقرب أزمانهم ، وليسوا من العرب البائدة لأنهم باقون في الأجيال المتأخرة ، إلاّ أن يقال : إن جمهورهم قد ذهب بعد عصورهم الأولى ، واندرجوا في « كِنْدَةَ » فصاروا في عدادهم ، فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا . والله أعلم .

قال ابن سعيد : إن « جرهم » أمتان : أمة على عهد عاد ـ وهي جرهم البائدة ـ وأمة من وُلْد جُرْهُم بن قحطان . ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ، ملك أخوه جرهم الحجاز . ثم ملك من بعده ابنه عبدياليل ، ثم ابنه عبد المدان بن جرهم ، ثم ابنه نفيلة بن عبد المدان ، ثم ابنه عبد المسيح ، ثم ابنه مضاض ، ثم ابنه الحرث . ثم ملك من بعده جرهم بن عبد ياليل ثم ابنه عمرو بن

الحرث ، ثم أخوه بشير بن الحرث ، ثم مضاض بن عمرو بن مضاض . قال : وهذه الأمة الثانية هم الذين بُعث إليهم النبي اسماعيل (ع) ، وتزوج فيهم .

أما بنو سبأ بن يقطن فلم يبيدوا ، وكان لهم بعد تلك الأجيال البائدة أجيال باليمن ، منهم : حمير . . وكهلان . . وملوك التبابعة . وهؤلاء هم العرب المستعربة وسيأتي الكلام عنهم إن شاء الله تعالى .

وفي مسند الإمام أحمد : أنّ رجلاً ـ قيل : هو فروة بن مسيق المرادي ـ سأل رسول الله (ص) عن سبأ أرجلٌ هو أم إمرأة أم أرض ؟ فقال (ص) : بل رجل ولد عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام أربعة . فأما اليمانيون : فمذحج . . وكِنْدَة . . والأزد . . والأشعر . . وأنمار . . وحمير . وأما الشاميون : فلخم . . وجذام . . وعاملة . . وغسان . وثبت أن أباهم قحطان كان يتكلم العربية ، وأخذها عن الأجيال قبله ، فكانت لغة بنيه ، ولذلك سموا العرب المستعربة ، ولم يكن من آباء قحطان من لدن نوح (ع) إليه من يتكلم بالعربية ، وكذلك كان أخوه فالغ وبنوه إنما كانوا يتكلمون بالعجمية إلى أن جاء اسماعيل بن إبراهيم (ع) فتعلم العربية من جرهم فكانت لغة بنيه ، وهؤلاء المسمون بالعرب التابعة .

٢ ـ أبو العرب اسماعيل (عليه السلام) :

واسماعيل (ع) هو ابن إبراهيم بن آزر ـ وهو تارح ، وآزر اسم لصنمه لُقِّب به ـ ابن ناحور بن ساروخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

وكان أبوه إبراهيم الخليل (ع) متزوجاً من سارة وكانت عقيماً لا تلد ، فوهبت جاريتها « هاجر » إلى إبراهيم وقالت له : لعلّ الله يرزقك منها ولداً . فتزوجها إبراهيم ، وكان قد سأل الله أن يهبه ولداً فوعده به ، فولّدت هاجر لإبراهيم اسماعيل (ع) لستٍ وثمانين من عمره . وأوحى الله إليه إني قد باركت عليه وكثرته ويكون رئيساً لشعب عظيم . وأدركت سارة الغيرة من هاجر وطلبت منه إخراجها ، فهاجر بها إلى مكة ووضعها وابنها بمكان زمزم عند دوحةٍ هنالك وانطلق ، فقالت له هاجر : الله أمرك ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا . وانطلق إبراهيم ، وعطش اسماعيل بعد ذلك عطشاً شديداً ، وأقامت هاجر تتردد بين الصفا والمروة إلى أن صعدت عليها سبع مرات لعلّها تجد شيئاً ، ثم أتته فوجدته يفحص برجليه فنبعت زمزم .

ثم مرّت رفقة من جُرُهم أو أهل بيت منهم ، ونزلوا أسفل مكة ، فرأوا الطير حائمة فقالوا : لا نعلم بهذا الوادي ماء ، ثم أشرفوا فرأوا المرأة وابنها فنزلوا معهما هنالك . فشبّ اسماعيل بينهم وتعلم اللغة العربية منهم ، وأعجبوا به كثيراً ، وتزوّج إمرأة منهم وهي : الحنفاء بنت الحارث بن مضاض الجرهمي ، فولدت له اثني عشر ذكراً ، وهم : قيدار . . ونابت . . وأدبيل . . ومبشام . . ومسمع . . ودوما . . ومسا . . ومداد . . وتيما . . ويطور . . ونافس . . وقيدما . ولما توفي اسماعيل وليَ البيت الحرام بعده نابت بن اسماعيل .

وافترق ولد اسماعيل يطلبون السعة في البلاد ، وحبس قوم أنفسهم على الحرم ، فقالوا : لا نبرح من حرم الله . ولما توفي نابت ،

وليَ البيت المضاض بن عمرو الجرهمي ـ وهو جد ولد اسماعيل ـ وذلك أن من بقي في الحرم من ولد اسماعيل كانوا صغاراً . وبقي الملك في ولده إلى أن ملك الحارث بن مضاض بن عمرو فكان آخر ملوك جُرُهم .

وطغت جُرُهم ، وبغت وظلمت وفسقت في الحرم ، فسلّط الله عليهم الذرّ ، فأُهلكوا به عن آخرهم . وكان ولد اسماعيل منتشرين في البلاد يقهرون من ناوأهم ، غير أنهم كانوا يسلمون الملك لجرهم للخؤولة ، وكانت جرهم تطيعهم في أيامهم ، ولم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة في أيام جرهم غير ولد اسماعيل تعظيماً منهم لهم ، ومعرفة بقدرهم . فقام بأمر الكعبة بعد نابت أمين . ثم يشجب . . ثم الهميسع . . ثم أدد . فعظم شأنه في قومه ، وجلّ قدره ، وأنكر على جرهم أفعالها ، وهلكت جرهم في عصره .

ثم قام بالأمر من بعد أدد ، عدنان بن أدد ، وكان عدنان أول من وضع الأنصاب وكسا الكعبة . وكان معد بن عدنان أشرف ولد اسماعيل في عصره ، وكانت أمه من جرهم ، ولم يبرح الحرم ، فكان له من الولد عشرة أولاد ، وهم : نزرا . . وقضاعة . . وعبيد الرماح . . وقنص . . وقناصة . . وجنادة . . وعوف . . وأوْد . . وسلهم . . وجنب . وكان معد يكنّى أبا قضاعة ، فانتسب عامّة ولد معد في اليمن ، وكان لهم عدد كثير . وانتمت قضاعة إلى ملك حمير . وكان معد أول من وضع رَحْلاً على جملٍ وناقة ، وأول من زمها بالنّسع .

وكان نزار بن معد سيد بني أبيه وعظيمهم ، ومقامه بمكة ، وأمه

ناعمة بنت جوشم بن عدي بن دبّ الجرهمية . وكان له من الولد أربعة : مضر . . وإياد . . وربيعة . . وأنمار . وأمهم : سودة بنت علكّ بن عدنان . ولما حضرت نزار الوفاة قسّم ميراثه على ولده الأربعة ، فأعطى مضر ناقته الحمراء وما أشبهها من الحمرة ، فسمي مضر الحمراء ، وأعطى ربيعة الفرس وما أشبهها ، فسمي ربيعة الفرس ـ وهذان هما الصريحان من ولد اسماعيل ـ وأعطى إياداً غنمه وعصاه ، وكانت الغنم برقاء ، فسمي إياد البرقاء ، ويقال أيضاً : إياد العصا ، وأعطى أنماراً جارية له تسمى بجيلة فسمي بها . وأمرهم إن تخالفوا أن يتحاكموا إلى الأفعى بن الأفعى الجرهمي ، وكان منزله بنجران .

فأما أنمار بن نزار فإنه تزوج في اليمن ، فانتسب ولده إلى الخؤولة ، فمنهم : بجيلة وخثعم ، ولم يخرج من ولد نزار غيرهم .

وأما ربيعة بن نزار فإنه فارق إخوته ، فصار قريباً إلى الفرات ، وولد له أولاد منهم : أسد . . وضبيعة . . وأكلب . . ولا ينسبون إلى اليمن . وانتشر ولد ربيعة بن نزار وولد ولده حتى كثروا ، وامتلأت منهم البلاد ، فجماهير قبائل ربيعة : بهتة بن وهب بن جُلَي بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة . . وعنزة بن أسد بن ربيعة . . وعبد القيس بن أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة . . ويشكر بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى . . وحنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط . . وعجيل بن لُجيم بن صعب بن علي بن بكر . . وقيس بن ثعلبة بن عكابة بن علي بن بكر . . وتيم اللات بن ثعلبة بن عكابة .

وأما إياد بن نزار فإنه نزل اليمامة ، فولد له أولاد انتسبوا في القبائل ، فيقول النسّابون : إن ثقيفاً قسيّ بن النبت بن منبه بن منصور بن يقدم بن أفصى بن دُعمي بن إياد ، وإنهم انتسبوا إلى قيس . وكانت ديارهم بعد اليمامة ، الحيرة ، ومنازلهم الخورنق والسدير وبارق ، ثم أجلاهم كسرى عن ديارهم ، فأنزلهم تكريت ـ وهي : مدينة قديمة على شط دجلة ـ ثم أخرجهم إلى بلاد الروم ، فنزلوا بأنقرة ، ورئيسهم يومئذٍ كعب بن مامة ، ثم خرجوا بعد ذلك ، فجماهير قبائل إياد أربعة : مالك . . وحُذاقة ، ويقدم . . ونزار . وفيهم يقول الأسود بن يعفر التميمي :

أهل الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذي الشرفات من سندادِ
الواطئون على صدور نعالهم يمشون في الدّفني والأبرادِ
عفت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

وأما مضر بن نزار : فسيد ولد أبيه ، وكان كريماً حكيماً ، ويروى عنه أنه قال لولده : مَنْ يزرع شرّاً يحصد ندامة ، وخير الخير أعجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروهها فيما أصلحكم ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدكم ، فليس بين الصلاح والفساد إلاّ صبر ووقاية وروي أن رسول الله (ص) قال : لا تسبوا مضر وربيعة فإنهما كانا على دين إبراهيم .

فولّد مضر بن نزار ، الياس بن مضر . . وعيلان بن مضر فولد عيلان ، قيس بن عيلان بن مضر ، فانتشر ولده وكثروا وصار فيه العدد والمنعة ، فجماهير قبائل قيس بن عيلان : عدوان بن عمرو بن

قيس . . وفهم بن عمرو بن قيس . . ومحارب بن خصفة بن قيس . . وباهلة بن أعصر بن سعد بن قيس . . وفزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس . . وسليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس . . وعامر بن صعصة بن معاوية بن بكر بن هوازن ومازن بن صعصة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة . . وكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصة . . والبكاء بن عامر بن ربيعة . . وعوف بن عامر بن ربيعة بن عامر .

ولهذا يقال : إن اسماعيل صار أباً للعرب . . إذ أن الأجيال العربية تحدرت كلها من هذه القبائل التي ذكرناها آنفاً . . وسيأتي إن شاء الله ربط نسب اسماعيل بنسب خاتم الأنبياء محمد (ص) ، تحت عنوان : لمحة خاطفة عن أجداد العرب .

٣ ـ العرب المستعربة :

سمي العرب العاربة كذلك ، لأنّ اللغة العربية كانت لهم بالأصالة ، فقيل : العاربة وهم أقدم الأمم . أما العرب المستعربة لأنهم صاروا إلى حالٍ لم يكونوا عليها فسموا كذلك ، إذ أنهم أخذوا السمات والشعائر العربية من غيرهم ، فانتقلت اللغة إليهم بواسطةٍ ، فقيل : المستعربة . وهي بمعنى الصيرورة ، أي : إذا صار الشيء من حالٍ إلى حالٍ أخرى لم يكن عليها ، وهذا من قبيل قولهم : استحجر الطين ، أي : صار حجراً أو كالحجر .

وهذه الطبقة من العرب يُعرفون باليمنيَّة والسبائيَّة . وهؤلاء من قحطان ، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرُب بن قحطان ، واختلف

النسّابون كثيراً في أسماء قحطان وسبأ ويشجب ، ويقول ابن خلدون : وأصح ما قيل في هذا أنه : قحطان بن يمن بن قيدر ، ويقال : الهميسع بن يمن بن قيدار ، وأنّ يمن هذا سُمِّيت به اليمن . وبعضهم قال : إن قحطان من ولد اسماعيل ، وعلى هذا تكون العرب كلهم من ولده لأن عدنان وقحطان يستوعبان شعوب العرب كلها . وليس هناك خلاف أن قحطان هو أبو اليمن كلهم .

ويقال : إنه أول من تكلم العربية ، وتعلّم قحطان العربية من العرب العاربة . وكان بنو قحطان معاصرين لأخوانهم من العرب العاربة ، ومظاهرين لهم على أمورهم ، ويلتقوا معهم في البادية ، ولكنهم ابتعدوا عن الملك والترف فظلّوا محافظين على بداوتهم وما يتبع ذلك من قوة وبسالة . وتشعبت في أرض الفضاء فضائلهم ، وتعدّدت أفخاذهم وعشائرهم . فلما نما عددهم استولوا على الملك ، وزاحموا العمالقة ، فكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ، وهو أول من حيّاه قومه بتحية الملك . وقال ابن سعيد : وهو الذي ملك بلاد اليمن وغلب عليها قوم عاد ، وغلب العمالقة على الحجاز ، وولي أخوته على جميع أعمالهم ، فولى جُرْهماً على الحجاز ، وعاد بن قحطان على الشحْر ، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحْر ، وعُمَان بن قحطان على بلاد عُمان .

وملك بعده ابنه يشجب بن يعرب ، وقيل : اسمه يمن ، واستبد أعمامه بما في أيديهم من الممالك ، وملك بعده ابنه عبد شمس ، وقيل : عابر ، ويسمى سَبَا ، لأنه أول مَنْ سنّ السبي ، وبنى مدينة سبأ وسدّ مأرب ، وبنى مدينة عين شمس بإقليم مصر . وكان لسبأ من الوُلْد

كثير ، وأشهرهم : حِمْيَر . . وكهلان ، اللذان منهما الأمتان العظيمتان من اليمنية ، أهل الكثرة والملك ، وملك حِمْير منهم أعظمه ، وكان منهم التبابعة .

ولما هلك سبأ قام بالملك بعده ابنه حِمْيَر ، ويعرف بالعرنجج ، وقيل : هو أول من تتوّج بالذهب . وكان له من الأولاد ستة : واثل . . ومالك . . وزيد . . وعامر . . وعوف . . وسعد . وملك بعده ابنه واثل . وقيل : أخوه كهلان ، ومن بعده : وائل ، ثم السكسك بن وائل . وكان مالك بن حمير قد هلك وغلب على عُمان ابنه قضاعة ، فحاربه السكسك وأخرجه عنها ، ودارت حروب طويلة بين الحيين . ثم استبدّ عليه من بني حمير ماران بن عوف بن حمير ، ويعرف بذي رياش ، وكان صاحب البحرين فنزل نجران واشتغل بحرب مالك بن الحاف بن قضاعة .

وهكذا اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم طوائف إلى أن استقرّ في الرائش وبنيه التبابعة كما سيأتي .

« ٣ »

ملوك التبابعة

هؤلاء الملوك من ولد عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبين بن الهميسع بن حمير . وكانت بلادهم « صنعاء » ، وكان سد مأرب يبعد عنهم ثلاث مراحل ، أمرت ببنائه بلقيس ـ ملكة من ملوكهم ـ ما بين جبلين ، وبني بالصخر والقار ـ الزفت ـ فحقنت به ماء العيون والأمطار ، وفتحت منه فتحات حتى يستطيّعوا السقايا منه على قدر حاجتهم ، وهو الذي يسمى « العَرِم ، والسِكر » .

وقيل : إنّ الذي بنى السدّ هو جد القبيلة « حمير » . وقيل : بناه لقمان الأكبر ابن عاد . وقيل : بناه سبأ بن يشجب . والأصح ـ كما قال ابن خلدون ـ إن المباني العظيمة والهياكل الشامخة لا يستقل بها

الواحد ، فيكون قد بدأ في بنائه « سبأ » ثم أكمله من بعده ملوك حمير .

قال السهيلي : معنى تُبّع : الملك المُتَّبع . وقيل : التبابعة : هم ملوك اليمن ، وأحدهم تُبّع لأنهم يتبع بعضهم بعضاً ، كلما هلك واحد قام آخر تابعاً له في سيرته ، وزادوا الباء في التبابعة لإرادة النسب . قال المسعودي : ولم يكونوا يسمّون الملك منهم تُبّعاً حتى يملك اليمن والشَحْر وحضرموت ، وقيل : حتى يتبعه بنو جشم بن عبد شمس ، ومَنْ لم يكن له شيء من الأمرين فيسمى ملكاً ، ولا يقال له تُبّع .

وأول ملوكهم بإتفاق هو : الحرث الرائش ، وإنما سمي الرائش لأنه راش الناس بالعطاء . واختلف الناس في نسبه بعد اتفاقهم على أنه من ولد واثل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبين بن الهميسع بن حمير .

قال السهيلي : وملك الحرث الرائش مائة وخمساً وعشرين سنة وكان يسمى تبعاً ، وكان مؤمناً ، ثم ملك بعده ابنه أبرهة ذو المنار ، وسمي كذلك لأنه رفع المنار ليهتدي به . ثم ملك بعده أفريقيش ، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى إفريقيا وبه سُمّيت ، وساق البربر إليها من أرض كنعان ، مرّ بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم ، فاحتمل الغلّ منهم ، وساقهم إلى إفريقيا فأنزلهم بها ، وقتل ملكها جرجير ، ويقال : إنه الذي سمى البرابرة بهذا الاسم ، لأنه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم وأصواتهم قال : ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ، والبربرة في لغة العرب : اختلاط أصوات غير مفهومة . ثم ملك بعده

أخوه العبد بن أبرهة ذو الأذعار ، وسمي بذلك لكثرة ذعر الناس من جَوْره وظلمه ، وكان على عهد سليمان بن داود وقبله بقليل ، وغزا ديار المغرب ، وسار إليه ملك فارس كيقاوس فغلبه العبدُ وأسره ، ثم استنقذه وزيره رستم بجيش كبير من فارس ، وذكر ابن هشام : أنّ مهلك ذي الأذعار كان على يد « بلقيس » حيث دست له السم فمات .
وملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن ذي الأذعار ، وهو ذو الصرح وملكت بعده ابنته بلقيس وقال الطبري : اسم بلقيس يلقمة بنت اليشرح بن الحرث بن قيس .

ثم غلبهم النبي سليمان (ع) على اليمن ، كما جاء في القرآن الكريم ، فيقال : تزوجها . ويقال : بل عزلها . قال هشام بن الكلبي : إن ملك اليمن صار بعد بلقيس إلى ناشر بن عمرو الذي يقال له : ياسر أنعم ، لإنعامه عليهم بما جمع من أمرهم وقوي من ملكهم .

ثم ملك بعده ابنه شَمِر مرعش ، سمي بذلك لارتعاشٍ كان به ، ويقال : إنه غزا العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرّب مدينة الصغد وراء جيحون ، فقالت العجم : شمر كنداي ، أي : شمر خرّب . وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا ، وعرّبته العرب فصار سَمَرْقَنْد .

ثم ملك بعده : تُبّع الأقرن ، واسمه زيد ، وإنما سمي بذلك لشامةٍ كانت في قرنه . ثم ملك من بعده ابنه كلكيكرب ، وكان ضعيفاً ولم يغز قط إلى أن مات . وملك بعده ابنه تُبان أسعد أبو كرب ، ويقال : هو تُبّع الآخر ، وهو المشهور من ملوك التبابعة . قال الطبري : ويقال له : الرائد ، وأنه شخص من اليمن غازياً ومرّ

بالحيرة ، فتحيّر عسكره هنالك ، فسميت الحيرة ، وخلف قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة ، فقاموا هنالك وبنوا الأطام . واجتمع إليهم ناس من طَيْرَة وكلب والسكون وأياذ والحرث بن كعب ، ثم توجه إلى الأنبار ثم الموصل ثم أذربيجان ، ولقي الترك فهزمهم وقتل وسبى ، ثم رجع إلى اليمن فهابته الملوك ، وهادنه ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسان إلى الصّغْد ، وابنه يعفر إلى الروم ، وابن أخيه شمر ذي الجناح إلى الفرس فلقي ملك الفرس كيقباذ فهزمه وملك سمرقند وقتله ، وجاز إلى الصين فوجد حسان قد سبقه إليها ، فأثخنا في القتل والسبي ، وانصرفا بما معهما من الغنائم ، ويقال : إنهما تركا ببلاد الصين قوماً من حمير ، وأنهم بها لهذا العهد ، وإنه ترك ضعفاء الناس بظاهر الكوفة ، فتحيروا هنالك وأقاموا معهم من كل قبائل العرب .

وقال ابن إسحاق : إن تُبّع الآخر المشهور من ملوك التبابعة هو حسان تبّع وإنه تدين بدين اليهودية ، وسبب ذلك : أنه لما غزا إلى المشرق مرّ بالمدينة « يثرب » فملكها وخلّف ابنه فيهم ، فقتلوه غيلة ، ورئيسهم يومئذٍ عمرو بن الطِلّة من بني النجار ، فلما أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة قاصداً خرابها ، فجمع هذا الحي من أبناء قيلة لقتاله ، فقاتلهم ، وبينما هم على ذلك جاءه حَبْران من أحبار اليهود ـ أي عالمان من علمائهم ـ من بني قريظة ، وقالا له : لا تفعل ! فإنك لا تقدر ، وأنها مهاجر نبي قُرشي يخرج آخر الزمان ، فتكون قراراً له . فأعجب حسان بهما واتبعهما على دينهما ثم مضى لوجهه مصطحباً الحبرين معه فلقيه قبل مكة نفرٌ من هذيل ، وأغروه بمال

الكعبة وما فيها من الجواهر والكنوز ، فنهاه الحبران عن ذلك ، وقالا له : إنما أراد هؤلاء هلاكك ، فقتل النفر من هذيل ، وقدم مكة ، فأمره الحبران بالطواف بها والخضوع ، ثم كسا الكعبة وكان أول مَنْ كساها ، وأمر ولاتها من جرهم بتطهيرها من الدماء وسائر النجاسات ، وجعل لها باباً ومفتاحاً ، ثم سار إلى اليمن . وآمنت حمير باليهودية مذ ذاك .

ثم ملك بعده أخوه عمرو ، ويقال : أن بعضهم أشاروا عليه بقتل أخيه حسان لكرههم الغزو معه ، فوثب عليه وقتله ، فلم يعد يعرف النوم ، فسأل الأطباء عن ذلك ، فقالوا له : ما قتل رجل أخاه إلاّ سُلّط عليه السهر ، فجعل يقتل كل مَنْ أشار عليه بقتل أخيه ، ولم يُغْنِه ذلك شيئاً ، ثم ضاع أمر حمير من بعده وتفرقوا . وكان ولد حسان تبع صغاراً لا يصلحون للملك .

قال ابن حزم بعد ذكر هؤلاء من التبابعة : وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة . ولا يصح من كتب أخبار التبابعة وأنسابهم إلاّ طرف يسير لاختلاف رواتهم ، وبُعْد العهد .

٢ ـ قصة ذي نواس :

اتفق أهل الأخبار كلهم أنّ ذا نواس هو : ابن تبان أسعد واسمه زرعة ، وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة تسمى يوسف ، وتعصب لدين اليهودية ، وحمل عليه قبائل اليمن ، وأراد من أهل نجران أن يتدينوا به ، وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل في الدين واستقامة .

وكان هذا الدين وقع في أهل نجران قديماً من بقية أصحاب الحواريين ، من رجل جاء لعندهم يقال له ميمون ، نزل فيهم وكان مجتهداً في العبادة مجاب الدعوة ، وظهرت على يده كرامات عديدة ، فقال ابن إسحاق : إنّ ميمون نزل بقرية من قرى نجران ، وكان يمرّ به غلمان أهل نجران يتعلمون من ساحرٍ كان بتلك القرية ، وفي أولئك الغلمان عبد الله بن التامر ، فكان يجلس إلى ميمون ويسمع منه ، فآمن به واتبعه ، وحصل على معرفة اسم الله الأعظم ، فكان مجاب الدعوة لذلك ، واتبعه الناس على دينه ، وأنكر عليه ملك نجران وهمّ بقتله ، فدعاه الملك إليه وقال له : أفسدت عليّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلنّ بك . قال : لا تقدر على ذلك . فجعل الملك يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيطرح عن رأسه ، فيقع على الأرض ليس به بأس . فلما غلبه قال عبد الله بن التامر : إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت ذلك سلطت عليّ فقتلتني . فوحد الله ذلك الملك ، وشهد لشهادة عبد الله بن التامر ، ثم ضربه بعصا كانت في يده ، فشجه شجة غير كبيرة فقتله ، فهلك الملك مكانه .

واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر ، وأقاموا على دين عيسى (ع) حتى دخلت عليهم في دينهم الأحداث ، ودعاهم ذو نُواس إلى دين اليهودية فأبوا ، ولم يستجيبوا له فغضب عليهم .

أما سبب غزو ذي نُواس أهل نجران ، فيقول هشام الكلبي : إن يهودياً كان بنجران فعدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلماً ، فرفع أمره إلى ذي نواس ، وتوسل له باليهودية واستنصره على أهل نجران

النصارى ، فحمى له ولدينه وغزاهم ، فسار إليهم في أهل اليمن وعرض عليهم القتل فلم يزدهم إلاّ جِماحاً ، فخدّد لهم الأخاديد ، وقتل وحرق ، حتى أهلك منهم عشرين ألفاً أو يزيدون ، وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له دَوس ذو ثعلبان ، فسلك الرمل على فرسه وأعجزهم .

ولما أفلت « دوس » قدم على النجاشي يستنصره على ذي نواس ، وأعلمه بما ركب منهم ، وأراه الإنجيل قد احترق بعضه بالنار . فاعتذر النجاشي بقلة السفن لركوب البحر ، وكتب إلى قيصر ، وبعث إليه بالإنجيل المحرق ، فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة ، وأمر عليهم « أرباطاً » رجلاً منهم ، وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم ، فخرج « أرباط » لذلك ومعه « أبرهة الأشرم » فركبوا البحر ونزلوا ساحل اليمن . وجمع ذو نواس حمير ومَنْ أطاعه من أهل اليمن على اختلاف وافتراق في الأهواء . فلم تستمر الحرب طويلاً وانهزموا . فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجّه بفرسه إلى البحر ثم ضربه ، فدخل فيه وخاض غمار البحر ، فكان ذلك آخر العهد به .

٣ ـ أبرهة الأشرم :

وملك « أرباط » الحبشة بأمرٍ من النجاشي ، فانتقض عليه « أبرهة » وعارضه في ملكه ، ودعاه إلى النَصَفَة والنزال ، فتبارزا ، وخدعه أبرهة وأكمن عبداً له في موضع المبارزة ، فلما التقيا ضربه « أرباط » فشرم أنفه ـ ولذلك سُمّي بأبرهة الأشرم ـ فجاء العبد

من الكمين وضرب أرباطاً فقتله ، وأنقذ أبرهة . وملك أبرهة اليمن ولم يبعث إلى النجاشي بشيء ، وذكر له أنه خلع طاعته ، فحلف النجاشي ليريقنّ دمه . ثم كتب إليه أبرهة واسترضاه ، فرضي عليه وأقره على عمله .

ولما استقر أبرهة في ملك اليمن أساء السير في حمير ورؤسائهم ، وبعث في ريحانة بنت علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان ، فانتزعها من زوجها سيف بن ذي يزن ، وقد كانت ولدت منه ابنه معد يكرب ، وهرب سيف ولحق بأطراف اليمن ، واصطفى أبرهة فولدت له مسروق بن أبرهة واخته بسباسة .

ثم أن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء ـ قال السهيلي : كانت صنعاء تسمى أوَال ، وصنعاء اسم بانيها وهو : صنعاء بن أوال بن عمير بن عابر بن شالخ ـ وسمّى هذه الكنيسة القُلَيْس ، وكانت من الجمال والفن حتى قيل : إنه لم يُرَ مثلها قط ، وكتب إلى قيصر والنجاشي ، فزوداه في الصُنّاع والرخام والفسيفساء . وقال : لست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حَجَّ العرب . وتحدث العرب بذلك ، فغضب رجل من السادة أحد بني فقيم وخرج حتى أتى القليس ، فرمى بها أوساخه وقذارته ، وانصرف . وبلغ أبرهة ذلك وقيل له : الرجل من البيت الذي يحج إليه العرب ، فحلف ليسيرنّ إليه يهدمه . ثم بعث إلى الناس يدعوهم إلى حج القليس ، فضُرب الداعي في بلاد كنانة بسهم فقتل .

وأجمع أبرهة على غزو البيت وهدمه ، فخرج سائراً بالحبشة ومعه الفيل ، فلقيه ذو نفر الحميري وقاتله ، فهزمه وأسره واستبقاه

دليلاً في أرض العرب . قال ابن إسحاق : ولما مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف ، فأتوه بالطاعة ، وبعثوا معه أبا رغال دليلاً ، فأنزله المغمس بين الطائف ومكة ، فهلك هناك ، ورجمت العرب قبره بعد ذلك . قال جرير الشاعر :

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قبر أبي رغال

ثم بعث أبرهة خيلاً من الحبشة ، فانتهوا إلى مكة واستاقوا أموال أهلها ، وفيها مائتا بعير لعبد المطلب ـ وهو يومئذٍ سيد قريش ـ فانطلق عبد المطلب إلى أبرهة ومرّ بذي نفر وهو أسير ، فبعث معه إلى سائس الفيل ـ وكان صديقاً لذي نفر ـ فاستأذن له على أبرهة ، فلما رآه أجلّه ونزل عن سريره فجلس معه على بساطه ، وسأله عبد المطلب أن يردّ له إبله . فقال له أبرهة : هلاّ سألت في البيت الذي هو دينك ودين آبائك وتركت البعير ؟ فقال عبد المطلب : أنا ربّ الإبل ، وللبيت ربّ سيمنعه . فردّ عليه إبله . ورجع عبد المطلب وأمر قريشاً بالخروج إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها ، ثم قام عند الكعبة ممسكاً بحلقة الباب يدعو الله ويستنصره ، فكان مما قال :

لا هُمَّ إن العبد يمنعُ ... رَحْلَهُ فامنع رِحالَكْ
لا يغلبَنّ صليبُهُم ... ومحالُهُم أبداً مَحالِكْ
وانصُرْ على آلِ الصليبِ ... وعابديه اليوم آلَكْ

ثم أرسل الله عليهم طيراً جماعات جماعات من جهة البحر ، ترميهم بحجارة من طين متحجر ، فلا تصيب أحداً منهم إلاّ هلك مكانه ، وأصابه ـ في موضع الحجر من الجسد ـ كالجدري والحصبة

فهلك وأصيب أبرهة في جسده ، وبعثوا بالفيل ليقدم على مكة فربض ولم يتحرك فنجا ، ورجع أبرهة إلى صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، واجتمع عليه الأطباء ولكن بدون فائدة ، إذ انصدع صدره عن قلبه فمات .

ولما هلك أبرهة ملك مكانه ابنه يكسوم ، واستفحل ملكه ، وأذلّ حمير وقبائل اليمن ، ووطأتهم الحبشة فقتلوا رجالهم ، ونكحوا نساءهم ، واستخدموا أبناءهم . ثم هلك يكسوم ، فملك أخوه مسروق بن أبرهة ، وساءت سيرته وكثر عسف الحبشة باليمن .

٤ ـ قصة سيف بن ذي يزن :

قال ابن حزم : إن اسمه هو : علس بن زيد بن الحرث بن زيد الجمهور . وقال ابن الكلبي وأبو الفرج الأصبهاني : هو علس بن الحرث بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور . ومالك بن زيد هو أبو الأذواء .

فملك حمير لما انقرض أمر التبابعة صار متفرقاً في الأذواء من ولد زيد الجمهور . ولما ملك أبرهة على اليمن انتزع من سيف بن ذي يزن زوجته ريحانة ـ كما مرّ ـ وهرب سيف إلى أطراف اليمن . فلما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن ، وهلك أبرهة وابنه يكسوم ثم مسروق ، والظلم يزداد وأهل اليمن يعيشون تحت أنواع من العذاب والذلّ ، خرج سيف بن ذي يزن (علس) من الأذواء بقية ذلك السلف ، وقدم على قيصر ملك الروم ، وشكى إليه أمر الحبشة ، وطلب أن يخرجهم ويبعث على اليمن من شاء من الروم ، فلم يسعفه

على الحبشة ، وقال له : الحبشة على دين النصارى . فرجع سيف إلى كسرى ، وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب ، فشكى إليه ، واستمهله النعمان ، ثم أوفده على كسرى مع جماعة فسأل سيف كسرى النصر على الحبشة وأن يكون الملك له فقال له كسرى : بعدت أرضك عن أرضنا ، أو هي قليلة الخير ، إنما هي شاةً وبعير ، ولا حاجة لنا بذلك . ثم كساه وأجازه . فنثر سيف دنانير الإجازة بوهم الغنى ، فنهبها الناس ، وأنكر عليه كسرى ذلك . فقال سيف : جبال أرضي ذهب وفضة ، وإنما جئت لتمنعني من الظلم ، فرغب كسرى في ذلك وأمهله النظر في أمره ، وشاور أهل دولته . فقالوا : في سجونك رجال حبستهم للقتل ، ابعثهم معه ، فإن هلكوا كان الذي أردت بهم ، وإن ملكوا كان ملكاً ازددته إلى ملكك . وكان عدد المساجين ثمانمائة رجلاً ، وقدم عليهم أفضلهم ، وأعظمهم بيتاً ، وأكبرهم نسباً ، وكان وهزر الديلمي .

قال ابن حزم : كان وهزر من أولاد جاماساب عم أنوشروان فأمره كسرى على أصحابه ، وركبوا البحر ثمان سفن ، فغرقت منها سفينتان ، وخلصت ستة إلى ساحل عدن . فلما نزلوا بأرض اليمن قال وهزر لسيف : ما عندك ؟ قال : ما شئت من قوس عربي ، ورجلي مع رجلك حتى نظفر أو نموت . قال وهزر : أنصفت . وجمع سيف مَنْ استطاع من قومه ، وسار إليه مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة وأوباش اليمن ، فتوافقوا للحرب ، وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال ، فقتلوه وأحفظه ذلك . ثم حمل القوم عليهم دفعة واحدة ،

فانهزم الحبشة في كل وجه ، بعد أن أصاب ملكهم سهم قتله .

وأقبل وهزر إلى صنعاء ، ولما أتى بابها قال : لا تدخل رايتي منكوسة ، فهدم الباب ، ودخل ناصباً رايته . فملك اليمن ، ونفى عنها الحبشة ، وكتب بذلك إلى كسرى ، وبعث إليه بالأموال فكتب إليه أن يُملّك سيف بن ذي يزن على اليمن ، على فريضة يؤديها كل عام ، ففعل . وانصرف وهزر إلى كسرى ، وخلّف نائباً على اليمن في جماعة من الفرس ضمهم إليه ، وجعله لنظر ابن ذي يزن ، وأنزله صنعاء .

وانفرد سيف بسلطانه ، ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان ، يقال : إن الضحاك بناه على اسم الزهرة ، وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها . ولما استقلّ ابن ذي يزن بالملك وفدت عليه العرب تهنيه بالملك ، لما رجع من سلطان قومه وأباد من عدوهم ، وكان فيمن وفد عليه مشيخة قريش ، وعظماء العرب لعهدهم من أبناء اسماعيل ، وأهل بيتهم المنصوب لحجهم ، فوفدوا في عشرة من رؤسائهم ، فيهم عبد المطلب ، فأعظمهم سيف وأجلَّهم وأوجب لهم حقهم ، وخصّ عبد المطلب من بينهم ، وميزه عنهم ، وسأله عن بنيه حتى ذكر له شأن النبي (ص) وكفالته إياه بعد موت عبد الله أبيه ، عاشر ولد عبد المطلب ، فأوصاه به ، وحضه على الإبلاغ في القيام عليه ، والتحفظ به من اليهود وغيرهم ، وأسرّ إليه البُشرى بنبوّته ، وظهور قريش قومهم على العرب . وأسنى سيف جوائز هذا الوفد بما يدلّ على شرف الدولة لبعد غايتها في الهمة ، وعلو نظرها في كرامة الوفد ، وبقاء آثار الترف في الصبابة شاهد

لشرافة الحال في الأول .

قال ابن إسحاق : ولما انصرف وهزر إلى كسرى ، غزا سيف على الحبشة ، وجعل يقتل ويبقر بطون النساء ، حتى إذا لم يبق إلاّ القليل جعلهم خولا ، واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب ، وعظم خوفهم منه . فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه ، فلما توسطهم وقد انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه ، ووثب رجل منهم على الملك . وبلغ ذلك كسرى فبعث وهزر في أربعة آلاف من الفرس ، وأمره بقتل كل أسود أو منتسب إلى أسود ولو جعداً قططاً ، ففعل ، وقتل الحبشة حيث كانوا ، وكتب بذلك إلى كسرى ، فأمّره على اليمن ، وكان يجبي الأموال لكسرى ، وبقي على هذه الحال إلى أن هلك .

واستضافت حشّابة ملك الحميريين بعد مهلك ابن ذي يزن وأهل بيته إلى الفرس ، وورثوا ملك العرب وسلطان حمير باليمن ، بعد أن كانوا يزاحمونهم بالمناكب في عراقهم ، ويجوسونهم بالغزو في ديارهم ، ولم يبق للعرب في المُلْك رسم ولا طلل إلاّ أقيالاً من حمير وقحطان رؤساء في أحيائهم في البدو ، لا تعرف لهم طاعة ، ولا ينفذ لهم في غير ذاتهم أمر ، إلاّ ما كان لكهلان إخوتهم بأرض العرب من ملك آل المنذر من لَخْم على الحيرة والعراق بتولية فارس ، رمُلْك آل جفنة على الشام بتولية آل قيصر .

هذا آخر الخبر عن ملوك التبابعة من اليمن . وكان عدد ملوكهم ـ فيما قال المسعودي ـ سبعة وثلاثين ملكاً ، في مدة ثلاثة آلاف ومائتي سنة إلاّ عشراً ، وقيل : أقل من ذلك . فكانوا ينزلون مدينة ظفار . قال

السهيلي : زمّار وظفار اسمان لمدينة واحدة ، يقال : بناها مالك بن أبرهة وهو الأملوك ، وكان على بابها مكتوب بالقلم الأوّل في حجر أسود :

يَـوْمَ شِيْـدَتْ ظَفَـارُ فقيـلَ لمـن ... أنـتِ فقـالـتْ لِخيْـر الأَخْيَـارِ
ثـم سِيلَت مـن بعد ذلك قـالـت ... إنّ مُلكـي أحـابـشُ الأَشْـرارِ
ثـم سيلـت من بعـد ذلـك قـالـت ... إن ملكـي لفـارِس الأَحـرارِ
ثـم سيلـت مـن بعـد ذلـك قـالـت ... إن ملكـي لِقُـريـشٍ التُّجَّـارِ
ثـم سيلـت مـن بعـدِ ذلـك قـالـت ... إن ملكـي لخيـر سِنْجَـارِ
وقليـلاً مـا يلبـثُ القـومُ فيهـا ... غيـر تشييـدهـا لحـامـي البَـوَارِ
مـن أسـودٍ يُلْقيهـم البحـرُ فيهـا ... تُشْعـلُ النـارُ فـي أعـالـي الجِـدَارِ

« ٤ »

الدولة المعينية في جنوب الجزيرة العربية

إن أقدم الدول التي برزت في جنوب جزيرة العرب كدولة كبيرة شاملة واسعة السلطان والنفوذ هي الدولة المعينية ، وقد وجدت آثار منقوشة في أنحاء اليمن تحمل اسمها وشيئاً من أساليب حكمها وأسماء ملوكها كما وجدت نقود تحمل اسمها وأسماء بعض ملوكها .

وقد قدّر أحد المستشرقين بدء سلطان هذه الدولة حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد استناداً إلى دراسات أثرية . . وقد عثر النقابون على نقوش ونقود احتوت أسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوك الدولة المعينية . .

وهناك شيء هام لا بد من ذكره وهو أن الشيء الذي عرفناه من مدنية دولة (معين) يدل على أن دولة معين هي استمرار لدول ومدنية سابقة لها كانت على شيء كثير من المآثر العمرانية والاجتماعية

والسياسية .

ونذكر الآن نموذجاً لأسماء الملوك كما جاء في الجزء الأول من تاريخ العرب قبل الإسلام للمؤرخ العلّامة جواد علي : اليفع وقه ـ وقه إيل صديق ـ أبو كرب يثع ـ عمي يثع نبط ـ يثع صدق إيل ـ اليفع يثع ـ حفن ذرح ـ اليفع ريم ـ حوف عث ـ أب يدع يثع ـ وقه إيل ريام ـ حفن صديق ـ اليفع يفيش ـ يثع إيل صديق ـ وقه إيل يثع ـ اليفع بشر ـ حفن ريام ـ وقه إيل نبط ـ أب يدع ريام ـ خال حرب صدق ـ يثع إيل ريم ـ يثع كرب . .

ويظن المستشرقون الذين اقتبس جواد علي الأسماء من دراساتهم أن هؤلاء الملوك ليسوا من أسرة واحدة وإنما هم من أسر عديدة تولت السلطات الواحدة بعد الأخرى في ظروف ما تزال مجهولة . . أما عاصمة هذه الدولة فكانت مدينة (قرنو = القرن) وقد ذكر اسم (معين) في جملة المدن اليمنية القديمة والظاهر أن أميرها هو الذي برز كصاحب السلطان الأعلى فسميت الدولة الكبرى باسم إمارته وإنه حينما تمت له السيطرة اتخذ هو وخلفاؤه من بعده (قرنو) عاصمة . .

والمنطقة التي تعرف فيها هذه الدولة تعرف اليوم بالجوف وهي واقعة بين نجران وحضرموت وقد وجد النقابون آثاراً قديمة وكثيرة فيها حتى وصفها أحد المشهورين منهم وهو : (هاليفي) بأنها أغنى بقعة بالآثار في جزيرة العرب . وفي قسمها الجنوبي تقع خرائب مدينة (معين) وعلى مقربة منها آثار معابد ومبانٍ وأطلال كثيرة ولا سيما في جهة الشرق .

وقد اكتشف ـ كذلك ـ أثار ونقوش معينية كثيرة على شواطىء البحر الأبيض والخليج العربي ـ الفارسي وفي أعالي الحجاز ووادي القرى ومشارف الشام ومنطقة معان والعقبة وبعض أنحاء العراق ومصر واستدل العلماء على أن هذه الدولة كانت تعنى بالشؤون التجارية عناية كبيرة وأنه كان لها مركز تجاري وسياسي في المكان المسمى اليوم : (معان) في شرق الأردن وأن الإسم مأخوذ من اسمها . . ومعان هذه قريبة من خليج العقبة على البحر الأحمر وهي نقطة التقاء بين الشام ويثرب (المدينة المنورة) وأن المعينيين جاؤوا إلى هذه المنطقة عن طريق هذا البحر فأنشأوا مركز (معان) ليكون لهم نقطة ارتكاز حيث توسعوا منه إلى الجنوب حتى وصلوا إلى أعالي الحجاز. وإلى الغرب والشمال حتى وصلوا إلى بلاد الشام وشواطىء البحر الأبيض .

نظام الحكم في دولة معين

عرف عن نظام الحكم في هذه الدولة : أن الملك كان ينتقل بالوراثة وأن الأب والإبن أحياناً كانا يتوليانه معاً . وأن ملوكها كانوا يتلقبون في بدء عهدهم بلقب يتضمن معنى الزعامة الدينية وهو (مزواد) وقد كان تعبير : (مزواد معين) يعني ملك معين وزعيمها الديني وأن اللامركزية هي التي كانت سائدة حيث كان في كل مدينة أو منطقة حكومة محلية لها آلهتها التي تسمى باسمها ولها هيئاتها الدينية التي كانت تسمى (عم) وكان يدير المقاطعات ممثل للملك يلقب بلقب (كبر) يشرف على الشؤون العليا المتصلة بالدولة .

وإن الضرائب كانت ثلاثة أنواع : نوع يعود إلى خزانة الدولة ونوع يعود إلى المعابد ونوع يعود إلى الحكام المحليين الذين يقدمون من حصتهم قسماً خاصاً للملك ويتصرفون بالباقي في الأعمال والإصلاحات العامة . .

وعرف عن نظام هذا الحكم أيضاً في هذه الدولة أنه كان لها مجلس شيوخ يسمى (مسدد) يتألف من زعماء وكبراء الدولة للمداولة في الشؤون السياسية والمالية والتشريعية .

وقد كان في هذه الدولة مظهر مدني هام وهو أقدم عهد معروف شامل السلطان لدولة عربية في الجزيرة وقد كان للقراءة والكتابة في هذا العهد حظ غير يسير فقد اكتشفت كما قدمنا سابقاً نقوش معينية كثيرة ، منها ما يمكن أن يكون من آثار القرن الخامس عشر قبل الميلاد المسيحي وهي التي دلت على تاريخ هذه الدولة ومآثرها . . وكان لكل حرف من خط النقوش علامة خاصة . وكانت الأبجدية تتألف من تسعة وعشرين حرفاً والكتابة تبدأ من اليمين إلى الشمال وقد استمر هذا الخط مستعملاً في الدولة السبئية ثم في الدولة الحميرية بعدها بل كان هو الخط الرئيسي في معظم أنحاء جزيرة العرب قبل الإسلام .

« ٥ »

دول وإمارات في الجزيرة العربية

١ ـ الدولة القتبانية :

كان من الدول اليمنية المهمة دولة اسمها (قتبان) وإنها كانت قائمة في عهد الدولة السبئية . .

إن القتبانيين كانوا يسكنون الأقسام الغربية من جنوب اليمن وأن منطقتهم كانت تمتد إلى باب المندب وإن عاصمتهم هي (تمنا) وتقع خرائبها في وادي بيجان في منطقة حصبة وقد عرفت بكثرة مياهها وبساتينها ولا تزال آثار الري القديم تشاهد إلى اليوم وتسمى أطلال المدينة اليوم (كحلان) وقد كان في العاصمة (تمنا) خمسة وستون معبداً مما يدل على ضخامة المدينة وعمرانها وأن للقتبانيين مدناً عديدة أعظمها (ناجيا) و(تمنا) .

إن وجود هذه المملكة يعود إلى زهاء ألف سنة قبل المسيح . وإنها كانت موجودة في عهد دولتي معين وسبأ . .

إن رؤساء هذه المملكة كانوا في بدء أمرهم مكارب (أي زعماء) ثم صاروا يتلقبون بلقب الملك . .

وقد جاء وقت نشبت حرب بين قتبان وسبأ وتغلبت سبأ على قتبان حتى أصبحت قتبان جزءاً من سبأ غير أن ملوك قتبان استطاعوا في القرن الرابع قبل المسيح استرداد سلطانهم ومارسوه ردحاً من الزمن . وقد استمر سلطانهم حتى سنة خمسين قبل المسيح حيث زالت كمملكة . .

وكان لكل مجتمع ومدينة في مملكة (قتبان) مجلس شيوخ يسمى (مشود) ينظر في الشؤون المحلية كما كان (مشود) أعلى في العاصمة يجتمع فيه شيوخ الأسر والقبائل للإشتراك مع الملك في النظر في شؤون المملكة مثل الذي كان في دولتي معين وسبأ .

ويستفاد من النقوش أن ملوك هذه الدولة كانوا يعنون عناية فائقة باستغلال الأرض وضرائبها وجبايتها وتنظيم أعمالها وأعمال التجارة . . وقد كان لهم في الهندسة درجة راقية . وكانوا يفتحون الطرق ويعبدونها في طرق وعرة تحتاج إلى فن متقدم كما أحدثوا ثغرات في الصخور وفتح أنفاق في الجبال . . وإن رجلاً اسمه (أوس عم) وهو كبير المهندسين أشرف بنفسه على إدارة العمل ورسم الخطط وقام برصف الطرق وتبليطها وإكساء بعض الشوارع بالإسفلت بناء على تكليف الملك وإن هذا المهندس قام بأعمال عمرانية ضخمة في مواضع جبلية صعبة وبناء عدة معابد للإله (ود) والآلهة الأخرى مثل (عثتر)

و(عم) و(ذات صفتم) و(ذات ظهرن) . .

وقد عثر في خرائب (تمنا) على تمثالين لأسدين وفارسين على هيئة (كبوبيد) ملك الحب وإله الحب وقد صنعت السهام من النحاس وكذلك مصنوعات معدنية وخزفية جميلة الصنع تدل على حضارة راقية . .

أما آلهة قتبان فهي : (عثتر) و(عم) و(ابني) و(عم ذيسرن) و(ذشقير) و(حوكم) و(ذات صفتم) و(ذات ظهرن) و(ذات رحبن) .

ونذكر في خاتمة الفصل عن قتبان أن بعثة أميركية قامت في خرائب (تمنا) بتنقيبات مهمة سنتي ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ وعثرت على نحو ستة آلاف نص لم تعلن بعد نتائج دراستها وما أوردناه في تاريخ قتبان وأحوالها مستمد من النصوص التي عثر عليها الأثريان : (غلاسر) و(هاليفي) في القرن الماضي في جنوب اليمن والتي يبلغ عددها ألفين ونيفاً . .

ومن المفيد أن نلفت النظر إلى اللمحة العربية الظاهرة على أسماء ونصوص القتبانيين وتطورها شيئاً فشيئاً نحو العربية الصريحة ومشابهتها في ذات الوقت لأسماء ونصوص المعينيين والسبئيين واتصالها بها ففي كل هذا دلالة على وحدة الأصل والزمن من جهة وعلى نواة للعروبة الصريحة التي أخذت تتكامل منذ القرن الثالث الميلاديّ من جهة ثانية . .

٢ ـ الدولة الحضرموتية :

من الممالك المهمة التي كانت قائمة في جنوب الجزيرة أثناء قيام دول معين وسبأ وقتبان ، المملكة الحضرموتية . وقد عثر الأثريون والنقابون على كتابات ونقوش ونقود وأدوات خزفية وفخارية ومعدنية كثيرة يستدل منها على أشياء كثيرة في شؤون هذه المملكة وملوكها وأعمالها وقوانينها كما يستفاد أن هذه البلاد كانت خاضعة لملوك (معين) في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ثم انفصلت عنهم وكان على رأسها ملك مستقل وشقيق لملك معين ويستفاد ـ كذلك ـ أن الشقيقين تنافسا على الملك أو اتفقا على قسمة المملكة بينهما واستقلال كل منهما في قسم منها . . ثم عاد القسمان فاتحدا في تاريخ غير معروف وظلا متحدين إلى القرن السابع قبل الميلاد . ثم انفصلا ثانية .

وليس في الآثار ما يدل على ما إذا كان ملوك القسمين في هذه المرة من أسرة واحدة والإنفصال من نوع الأول أم أن أسرة جديدة ظهرت وملكت بعدهما وبسطت سلطانها على حضرموت . وسواء كان الملك لأسرة واحدة أو لأسرة غريبة جديدة فقد استمر هذا الكيان الجديد إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد ثم خضع لمملكة سبأ غير أنه قام في القرن الثاني قبل الميلاد زعيم من قبيلة (يهبر) اسمه : (رب شمس) بحركة أدت إلى ظهور حضرموت مرة أخرى كمملكة مستقلة لا سلطان لأحد عليها وقد أصلح هذا الملك الجديد مدينة (شبوه) واتخذها عاصمة له وقد ذكر التاريخ القديم أنه كان في هذه المدينة خمسون هيكلاً معبوداً الأمر الذي يدل على ضخامة عمرانها .

وقد استمرت هذه الدولة إلى أواخر القرن الثالث بعد الميلاد ثم خضعت أو اندمجت نهائياً في الدولة الحميرية السبئية . .

وهكذا يكون قد وجد في القسم الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية في ظرف واحد ، ممالك : معين وسبأ وقتبان وحضرموت تمارس استقلالها كاملاً أو مع الخضوع لدولة من هذه الدول بالإضافة إلى عشرات بل مئات الإمارات والمشيخات الثانوية التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي واسع أو ضيق ويتلقب رؤسائها بلقب ملك أو قيل أو ذو أو كبير الخ .

٣ ـ مكارب وملوك حضرموت :

كما كان شأن ملوك سبأ وقتبان كان شأن ملوك حضرموت من حيث أنهم كانوا يتلقبون في بدء الأمر بلقب مكرب (أبي زعيم) ثم صاروا يتلقبون بلقب الملك . .

وفي (فيلبى) الأثري : أن حضرموت انضمت إلى معين وظلت إلى حوالي سنة ٦٥٠ قبل الميلاد ثم انتقلت وتولى عرشها الملوك التالون : ـ

السمـع ذبيـان بـن ملكـي كـرب ـ بـدع أل بيـن بـن سمـه يفع ٥٩٠ ـ ٦٥٠ قبل الميلاد ثم أصبحت حضرموت على رأي فيليبي جزءاً من مملكة قتبان حيناً ومن مملكة سبأ حيناً آخر إلى سنة ١٨٠ قبل الميلاد حيث ظهرت مستقلة مرة أخرى وتولى عرشها حوالي خمسة عشرا ملكاً . وقد حكم هؤلاء الملوك من ١٨٠ قبل الميلاد إلى ١٢٥ بعد الميلاد . ويقول فيليبي : إن وضع الدولة غدا غامضاً مجهولاً من

سنة ١٢٥ بعد الميلاد حتى سنة ٢٩٠ بعد الميلاد . .

وكان من تقاليد هذه الدولة الحضرموتية : أنه كان كلما ولي عرش المملكة ملك جديد ذهب وكبراء دولته إلى حصن اسمه : (أنود) فأقام عنده حفلة تتويجه وتلقب بلقب الملك فيه وقدم بهذه المناسبة القرابين للآلهة وكان ملوك وأمراء الدولة وشيوخ العشائر المجاورة أو الخاضعة يرسلون نواباً عنهم لمشاهدة الحفلة وتهنئة الملك الجديد .

وإن هذه العادة بقيت مستمرة من عهد أسرة إلى عهود أسر أخرى وإن الملك : (رب شمس) ذبح لمثل هذه المناسبة ٣٥ ثوراً و٨٢ خروفاً و٢٥ غزالاً وثمانية فهود قرباناً .

وإن ملك حضرموت كلف أحد المهندسين ليشرف على حصون وإقامة استحكامات لصد الحميريين الذين كانوا يحاولون إخضاع حضرموت لسيادتهم وأن الملك وضع تحت إمرته عشرين رجلاً للإشراف على العمل وأمره بإنجازه خلال ثلاثة أشهر فتم العمل كما أراد الملك . . كما أنه أنشأ استحكامات ساحلية لحماية البر من الهجوم الذي كان يقوم به العدو من جهة البحر وأنه أقام حصوناً على لسانين بارزين في البحر . وبنى للعاصمة سوراً قوياً وبرجين وأماكن يلتجىء إليها الجنود ، الأمر الذي يدل على نزاع قوي بين الدولتين حضرموت وسبأ في عهد الحميريين الذين برزوا في أواخر القرن الأول قبل الميلاد وعلى أن حضرموت كانت قائمة كدولة مستقلة في ذلك الظرف .

وقال المؤرخون : إن مدينة (غان أو قان) هي ميناء حضرموت ووصفوها بأنها الميناء الرئيسي لملك أرض اللبان . . وقالوا : إن عاصمة هذا الملك هي (شبوه) وأن هذا الميناء يقع إلى شرق (عدن) وأن سلطانها كان يشمل معظم القسم الجنوبي الساحلي على البحر الهندي إلى عدن على البحر الأحمر .

وأن قصور الحضارمة كانت قائمة على العواميد المطلية بالذهب وأنهم كانوا يعلقون على أبواب منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر ويحيطون منازلهم بحدائق غناء وإن عندهم الموائد والأسرة من الفضة ورياشهم كان من أفخر الأنسجة ، الشيء الذي يدل على أن هذه المملكة كانت تنعم بثروة ورفاه وسعادة قلّ نظيرها .

ومن المفيد أن نشير في هذا المقام إلى ما ورد في القرآن الكريم من فصول عديدة عن عاد قوم هود في الأحقاف التي تقع في شمال منطقة حضرموت اليوم وننقل الفصل الثاني على سبيل المثال :

﴿ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على ربّ العالمين * أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (الشعراء) .

وهذا الفصل وأمثاله لم ترد في القرآن الكريم للقصة والتاريخ وإنما وردت للموعظة والتذكير .

والآيات هنا بمعنى العلامات أو القلاع والريع بمعنى أعالي الهضاب والجبال والمصانع بمعنى صهاريج المياه أو خزاناتها أو سدودها .

وهذا الوصف يطابق ما عرف من مآثر ونشاط القسم الجنوبي من جزيرة العرب وعمرانه وجنانه ومياهه وخزاناته .

٤ ـ دول وإمارات وقبائل مهمة في جنوب الجزيرة :

١ ـ المملكة الأوسانية : يظهر أن هذا الشعب كان خاضعاً في بدء الأمر لمملكة (قتبان) ثم انفصل عنها في ظرف من الظروف واستقل في السلطان . . وشمل سلطانه بالإضافة إلى بلاده الأصلية شعوباً أو قبائل . .

وقد وجدت عدة تماثيل لبعض ملوكها تعد من أنفس ما عثر عليه من نفائس جزيرة العرب وأولى تماثيل تصل إلينا من تماثيل ملوك العرب وقد كتبت على قاعدة كل تمثال اسم الملك الذي يمثله . فمنها تمثال كتب عليه : (يصدق إيل فرعم ملك أوسن بن معد إيل) . ومنها تمثال آخر كتب عليه : (زيدم سيلن بن محد إيل) . .

٢ ـ حملان : ومن تلك الإمارات أو القبائل قبيلة حملان وقد قرىء في نقش (مشوه) اسم حملان بعد جملة : (كبر أقيان) التي تعني زعيم المنطقة أو القبيلة كما عثر على هذا الإسم في كتابات عديدة أخرى ترجع إلى دور الأسر الهمدانية التي جلست على عرش سبأ في القرن الرابع قبل المسيح . . .

٣ ـ سخيم : ومنها إمارة أو قبيلة سخيم التي عثر على كتابات عديدة ورد فيها اسمها ويدل ذلك على أن هذه القبيلة كانت تتمتع بمنزلة محترمة وتشغل مكاناً هاماً وكانت تملك أراضي واسعة تؤجرها إلى من دونها من القبائل براتب سنوي وخدمات تؤديها لزعمائها . . وقد اعترف ملوك سبأ لها بالرئاسة على تلك القبائل . وكانت مدينة شبام تسمى باسمها : (شبام سخيم) حيث كان لها فيها النفوذ والزعامة . وكان لها فيها ندوة (مزود) يتداول زعماؤها فيها في شؤون السلم والحرب . وكان منها جماعات حكموا قبائل أخرى وقام رجال منهم بأعمال عمرانية عديدة مثل فتح طرق وحفر قنوات وكان لسخيم قبائل كثيرة تابعة لها . .

٤ ـ خولان : ومن القبائل التي ورد ذكرها في الآثار قبيلة خولان وكان يرأسها : (ذو خولان) أي أميرها . وكانت من القبائل القوية البارزة . . وقد ذكر الهمذاني في الإكليل قصراً منسوباً لهذه القبيلة ووصفه بأنه من القصور العجيبة . .

وكانت منازل خولان جوار مأرب وصرواح . وقام أميرها بإصلاح أرض فحفر آباراً وأنشأ سدوداً وزرع أشجاراً وبذر حبوباً وسجل ما أصلحه من الأراضي ملكاً خاصاً له وأعلن للناس أن ذلك كان في شهر : (صيد من سنة مائة وأربع وأربعين) وقدّر الأثريون : أن هذه السنة تقابل سنة تسع وعشرين بعد المسيح .

٥ ـ ردمان : قبيلة كانت تحت سلطان دولة سبأ كغيرها من الإمارات الثانوية وكان لها كيان خاص بارز ضمن دولة سبأ

وعاصمتها : (مارسيابا) وقد وصف نفسه أميرها بأنه : (قول ومحرج قبيلة ددمان صاحبة سلفن) .

٦ ـ بتع : كان لها أراضي تؤجرها لقبائل أخرى وكانت هذه القبائل التابعة لها توصف بوصف : (آدم بتع) أي رجالها أو زلمها وكان لها أمراء كثيرون تولوا حكم القبائل التابعة لها . . وكانت بطون قبيلة (بتع) تسكن مدينتي (حاز وريام) . .

٧ ـ سمعي : كانت هذه القبيلة تشغل مكاناً مهماً وتتفرع إلى فروع عديدة متوزعة في مناطق مختلفة . . وقد عثر على نص دوّنه أحد أمرائهم افتتح فيه بدعاء موجه إلى الإله (نالب) بأن ينعم عليه ويبارك له ولأولاده : (زيدم ويزد إيل) وأولادهما وأملاكهم جميعاً وبيتهم المسمى بيت (بعد) وكانت هذه العشيرة تنزل قرب همدان حيث كان لها أراض واسعة غنية يستأجرها أفرادها وبطونها من المشايخ . وكان لهذه العشيرة مشيخات في مدينتي : (عران وهران) حيث وصف بعض زعمائهم وفروعهم بوصف : ذي عران وذي هران . .

٥ ـ اللحيانيون في شمال الجزيرة :

تقدم في بحث الدولة المعينية أن سلطان دولة معين امتد عن طريق البحر الأحمر وخليج العقبة إلى الموقع الذي يعرف اليوم باسم (معان) ثم امتد حتى وصل إلى العلا في أعالي الحجاز وأنه كان في هذه المنطقة قبائل عرفت ببني لحيان كانت تخضع لتلك الدولة وصار يقوم على حكم المنطقة نواب عن الدولة المعينية من زعمائها يسمون (كِبر) أي كبير وزعيم وهو اصطلاح يمني قديم . .

وقد وجدت نقوش كثيرة عرفت بالنقوش اللحيانية لأن فيها ذكر لحيان في مكان يعرف اليوم باسم الخريبة في منطقة العلا في شمال الحجاز ويظن أنها خرائب عاصمة اللحيانيين التي كان اسمها (ددان) ومعظم النقوش المكتشفة مع الإسم محطم ومشوه ويحمل كثير منها أسماء بعض زعماء لحيان ومشايخهم وآلهتهم ولكنهم على كل حال كان في هذه النقوش دلالة مهمة وهي إلمام كثير من بني لحيان بالقراءة والكتابة عكس ما كان يقوم في الأذهان من انعدام من يقرأ ويكتب في الشمال أو أنهم قليلون .

وبعض الأثريين يرون أن طريقة تدوين معظم الكتابات اللحيانية تشبه طريقة تدوين الكتابات العربية في الجنوب . وإن تشابه الأسماء والمعبودات اللحيانية واليمنية القديمة يدل على وحدة الأصل والجنس والأفكار وبالتالي يدل على أن عرب شمال الجزيرة وجنوبها أرومة واحدة مشتركة افترقوا عن بعضهم بسبب ظروف الحياة وطبيعة الجزيرة مع الاحتفاظ بقسم كبير من التقاليد والخصائص . .

قال أحد العلماء الرومانيين : إن بطوناً منهم كانت منتشرة بين ينبع وإيله وفي داخل البلاد والعلا وهضبات خيبر وأنه كان لهم جملة دويلات أو مشيخات ، منها واحدة كانت مستقلة وعاصمتها : (العلا) ثم قال : إنهم كانوا في القرن الأول بعد الميلاد تحت سيطرة الأنباط . . وذكرت الكتب العربية اللحيانيين أنهم سكنوا في شمال شرقي مكة وأنهم ينتسبون إلى لحيان بن هذيل بن مدركة وأنهم كانوا من أحلاف قريش . . وعدهم الهمداني من بقايا جرهم .

وذكرت كتب السيرة خبر غزوة النبي لبني لحيان في السنة السادسة للهجرة وقالت إنهم كانوا ينزلون مكاناً اسمه : (غران) قرب مكة المكرمة وأنهم لما علموا بزحف النبي تمنعوا بالجبال كما ذكرت أنه كان لهم قرية اسمها : (عسقان) وهي كذلك قرب مكة . .

٦ ـ الثموديون :

وجدت كذلك في شمال الحجاز وفي الجهات التي تعرف اليوم بمدائن صالح كتابات كثيرة عرفت بالكتابات الثمودية لأن فيها ذكراً لثمود وقد وجدت كتابات مماثلة لها في الخط واللهجة في اليمن . . والكتابات التي وجدت قصيرة تتألف من كلمة أو كلمات قليلة وعليها في الغالب صور حيوانات إلى جانب الكتابة . ومعظمها كتب في أمور شخصية وعلى أي حال فإنها تنطوي على دلالة هامة في صدد الحالة الثقافية والدينية التي كان عليها الثموديون . وبعض الأثريين يرجعون بعض الكتابات إلى القرن السابع قبل الميلاد غير أن أكثر ما عثر عليه يرجع إلى ما بعد الميلاد وطابع العروبة الصريحة بارز عليه ومن بعض الأشخاص التي قرئت على النقوش :

(أوس) و(سعد) و(عيفر) و(ردائل) و(بارح) و(كرب إيل) و(مالك) و(عذرائيل) و(عوذ) و(أسعد) و(عيش) و(عياش) و(أياس) و(قيس) و(هلال) و(مهبب) و(كعب) الخ .

ومن أسماء الآلهة التي قرئت عليها : (ود) و(شمس) و(مناة) و(كاهل) و(بعلت) و(يهوا) .

وهذه الأسماء تمثل أدواراً متنوعة ، منها ما هو عربي صريح فصيح ومنها ما هو عربي صريح قديم ومنها ما يتشابه مع الآلهة والأسماء اليمنية في دور ما قبل العروبة الصريحة ، كل ذلك يدل دلالة واضحة على أنها متصلة بالقديم ومستمرة إلى عهد متأخر . .

وإليك بعض النماذج من نصوص الكتابات الثمودية :ـ

١ ـ (هعلم لببى) الكتابة تشير إلى علَم وتعلن أنه ملك لشخص اسمه ببى .

٢ ـ (لتم بغث بن جشم هو عل) الكتابة تشير إلى وعل وتعلن أنه ملك لشخص اسمه يتم يغوث بن جشم . .

وقد ورد اسم ثمود في أحد نقوش سرجون الثاني الملك الآشوري الذي حكم في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد في جملة أسماء وقبائل قال : إنه أخضعها وأخذ الجزية منها وأنها لم تخضع ولم تدفع الجزية لأحد من قبله .

وقال المسعودي : كان لهم ملك في قديم الزمان وإن ملكهم الأول هو عاد بن إرم بن ثمود وقد امتد حكمه مائتي سنة ثم ملك بعده جندع بن عمرو وكان ملكه مائتين وتسعين سنة وإن بعثة النبي صالح كانت في زمن هذا الملك . .

ثم أخذ المسعودي يذكر هذه البعثة وما كان من مناوأة ثمود لنبيهم وتعجيزه وما كان من انفلاق الصخرة وخروج الناقة منها كآية من آيات الله الدالّة على صدق رسالته وما كان من تآمر بعضهم عليها

وعقرها وما كان من حلول عذاب الله فيهم وتدمير بلادهم .

٧ ـ التيمائيون :

يوجد الآن في أعالي الحجاز وطريق : يثرب ـ معان قرية اسمها (تيماء) وعلى مقربة منها خربة ، فيها أحجار ضخمة مربعة يظن أنها بقايا معبد قديم . .

وقد استنتج الباحثون والأثريون من الأطلال الباقية أنه كان في هذا المكان مدينة كبيرة ضخمة . . وقد ذكر اسم تيماء في نقوش (تاغلات بلاشر) الآشوري الذي حكم في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد في جملة من ذكر فيها من المدن والقبائل العربية التي خضعت وأدت الجزية له وقد ذكر اسمها في سفري : أشعيا وأرميا من أسفار العهد القديم وذكرت في الأخير مع (ددان) عاصمة اللحيانيين .

وقد عرف من الآثار أن تبونيد الملك الكلداني البابلي الذي حكم من سنة ٥٥٥ إلى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد بعد بختنصر غزا هذه المدينة ووصل إليها بعد سفر طويل شاق وقتل ملكها وأهلها وبنى لنفسه فيها قصراً كالذي في بابل وأقام فيها بضع سنين حيث يدل كل هذا على أنه كان في هذه المنطقة نشاط عربي وملك عربي يمتد إلى ما قبل القرن الثامن قبل الميلاد كما هو شأن جيرانها الثموديين واللحيانيين وقد قال الأثريون : إن تيماء كانت ملتقى قوافل التجارة الغادية الرائحة بين الجنوب والشمال وأن أهلها كانوا ماهرين في الأعمال التجارية وأنهم دفعوا الجزية (لتاغلات بلاشر) رغبة في الاستمرار على نشاطهم .

التجاري بعد أن وقعت جميع البلاد الشمالية تحت سيطرته .

٨ ـ الجرهيون :

قال استرابون : إن ميناء هذا الشعب تقع على خليج عميق من الخليجان العربي الفارسي . بيوتها مبنية بحجارة الملح وأهلها يتاجرون بالطيب والمر والبخور تحملها قوافلهم التي تسلك الطرق البرية والبحرية إلى بابل ثم إلى مدينة (نابا اسقوس) التي قال عنها الباحثون بأنها مدينة (دير الزور) ومنها إلى مختلف الأنحاء .

وخلاصة ما أوردوه أنها كانت مركزاً من المراكز التجارية الخطيرة وسوقاً من الأسواق المهمة في بلاد العرب وملتقى طرق القوافل الواردة من الجنوب والشمال ومرفأ تجارياً يستقبل مراكب وتجارة أفريقية والهند والعربية الجنوبية ويعيد تصديرها إلى مختلف الأسواق براً وبحراً وقد صار أهلها من أغنى شعوب الجزيرة وصاروا يستعملون أواني الذهب والفضة ويزينون بيوتهم بالذهب والحجارة النفيسة . .

وقد حرك صيت هذه وثروتها أحد ملوك الدولة السلوقية اليونانية التي قامت في بلاد الشام في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد فجعلته يقود أسطوله في عام ٢٠٥ قبل الميلاد فيقطع به نهر دجلة للاستيلاء على المدينة الغنية وإلحاقها بحكمه . وقد أرسلت المدينة إليه رسولاً يحمل رجاءها بإلا يحرمها من نعمتي السلام والحرية فاستجاب إلى الرجاء واكتفى منهم بفدية كبيرة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة . .

وبعض الباحثين يخمنون أن مدينة العقير أو العجير الحالية تقوم علـى تلـك المـدينـة القـديمـة وبعضهـم يقـول إن هـذه المـدينـة هي (القطيف) في المنطقة الشرقية في السعودية .

وذكر الهمذاني مكاناً أو مدينة قديمة باسم (الجرغاء) ولم تذكر الروايات طريقة الحكم في هذه المنطقة والغالب أنها كانت تحكم من قبل زعماء قبائلها القوية . وقد كان هذا شأن المناطق العربية الشمالية من جزيرة العرب قبل بروز الشخصية العربية وبعدها .

وقال الأثريون إنّ هذه الميناء تقع على الخليج المقابل لجزر البحرين التي تبعد عنه خمسين ميلاً .

وقد كان العرب يطلقون اسم البحرين على الساحل المقابل لهذه الجزر أيضاً . ويذكر اسم مدينة (هجر) على الساحل كعاصمة لإمارة البحرين التي كانت تحت حكم زعماء بعض القبائل القوية .

٩ ـ ملوك وقبائل في نقوش الآشوريين :

ورد في النقوش الآشورية التي ترجع إلى القرن التاسع ثم الثامن ثم السابع أسماء قبائل عربية كانت تتخرك بين شمال الجزيرة الغربي ومشارف بلاد الشام كما ورد فيها أسماء ملوك وملكات من العرب كانت في هذه المناطق وكانت تندمج في الأحداث السياسية والحربية التي كانت تقع على مسرح بلاد الشام والعراق .

وفي نقش يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد اسم جنديبو ملك أريبي وخبر اندماجه في جبهة ملوك الشام ضد آشور وتقديمه ألف جمل

وإن بلاد هذا الملك في منطقة من أطراف البادية قريبة من العمران .

وفي نقش آخر في القرن الثامن اسم : (زبيبي) ملكة أرض أريبي .

ومما ذكرته تلك النقوش اسم (سمسي) وهي ملكة عربية أخرى كانت خاضعة لآشور فحنثت بيمينها الذي أقسمت به على الإله شماش العظيم وتمردت على آشور فأرسل إليها حملة استولت على مدينتين من مدنها وأخذت تطاردها مما اضطرها إلى طلب العفو وقبل الملك توبتها وتقاضى منها جزية إبلاً ثم أرسل مندوباً عنه ليقيم عندها ويراقب حركاتها واتجاهات شعبها ويرسل بذلك تقارير إليه وقد ذكر النقش خسائر جسيمة منيت بها هذه الملكة وهي مائة ألف رجل وثلاثون ألف جمل وعشرون ألف رأس من الماشية .

وفي تلك النقوش قبائل : (مسا) و(سبأ) و(خيابا) و(بطنة) و(أدب إيل) وكل هذه القبائل خضعت للملك ودفعت له جزية من الذهب والفضة والإبل والطيوب . .

وقال الأشريون عن سبأ هذه : إنها جالية سبئية كانت في البلاد اللحيانية التي كانت خاضعة لليمن في وقت ما . . وقالوا عن القبائل الأخرى : أنها من القبائل التي كان يصفها الإسرائيليون وأسفارهم بالإسماعيليين والتي كانت بين أعالي الحجاز ومشارف اليمن . وذكرت النقوش كذلك في القرن الثامن اسم الملكة (سمسي) واسم (برعو) ملك موسري وأسماء (عويدة) و(بسطة) و(غازي) و(دانانا) و(أمبانده) كأسماء مناطق وصلت إليها القوات الآشورية

في عهد هذا الملك . . وقالوا : أن موسري أرض في بلاد العرب وأن المناطق المذكورة داخلة في أرض مملكة أريبي . .

وفي النقوش اسم الملكة (تلخونو) ملكة أريبي وخزائيل ملك قيدري . . . وإن الملك (أسرحدون) توغل في البادية ونكل بقبائل عربية كانت تنزل في أرض : (بازو) و(خازو) وقتل فيها ثمانية ملوك وأسر خلقاً كبيراً من أتباعهم وحمل معه آلهتهم وأصنامهم وأن ليلى ملك بادي تمكن من النجاة غير أنه ذهب إلى نينوى وطلب العفو فصفح عنه وأعاد إليه أصنامه وعينه ملكاً على أرض خازو . .

ويظن الآشريون أن هذه الممالك العربية هي في العربية الشمالية فيما بين مشارف الشام وأعالي الحجاز . ومنهم من ذهب إلى أن بازو هي نجد وخازو هي الإحساء .

ورد في كتب اليونان والرومان القديمة أسماء عدد من مدن شمال الجزيرة وموانئها وقبائلها بأسلوب يدل على أن هذه الأسماء كانت على شيء غير يسير من النشاط في القرن الأول بعد الميلاد على أن أكثر الأسماء قد غلبت عليها الصيغة واللهجة اليونانية حتى كادت تفقدها لمحتها العربية . .

وقد ورد في نقوش سرجون الثاني الآشوري اسم : (دلمون) في معرض ذكر الأنحاء التي غزاها هذا الملك وقال الأشريون : إنها البحرين أو السواحل المواجهة لها وإنها اشتهرت بثمارها ومعادنها وأخشابها وأنه كان يقوم فيها مملكة وملوك حيث يدل هذا على ما كان لهذه المنطقة من نشاط ممتد إلى ما قبل الثامن قبل الميلاد . . ومما

ذكروه : جزيرة أخرى اسمها : (إيكارم) من جزر الخليج العربي ـ الفارسي وقالوا : إنها تبعد عن الساحل الجنوبي للعراق مائة وعشرين ميلاً وأنها مغطاة بالغابات الكثيفة وفيها ضريح مزار يؤدي الناس عنده عبادتهم اليومية والصيد فيها محرم تحريماً دينياً ويسير العنز الوحشي فيها بكل حريته بسبب ذلك ويظن الباحثون أن هذه الجزيرة هي الجزيرة المعروفة باسم (شرارة) .

وذكروا بعد هذا جملة مدن وأن هذه المدن واقعة بين النهاية الجنوبية لشبه جزيرة قطر ورأس الخيمة في فم الخليج العربي .

ومما ذكروه ميناء (نرا) الذي يظن الباحثون أنه ينبع البحر ومينا (لامبيا) الذي يظن الباحثون أنه ينبع النخل وقالوا عن هذا : إنه ميناء شهير مريح وأمين وبه مياه عذبة ويصب فيه نهر واسع . في وسطه جزيرة بها مياه غزيرة صالحة للشرب والزراعة ويأتي بعد هذا الميناء في كلامهم خليج فيه تل عليه ثلاثة معابد مرتفعة لآلهة مشهورة عند أهل البلاد . . وقالوا إن هذا الشعب يعتني بتربية الإبل ويعيش على لحومها وألبانها ويستخدمها في تنقلاته . وإنه يخترق أرض نهر يحمل مع مياهه تراب الذهب ولكنهم لا يعرفون استخلاص الذهب منه فيذهب إلى البحر مع المياه ولا يسمحون للغرباء بالنزول عندهم . وقد ظن بعض الباحثين موقع الجبل بين موقعي اللبث وقنفذه في بلاد العسير وشعب ربما بقبيلة زبيد أو بقبيلة طيبة ، وكلتاهما من قبائل المناطق الشرقية وذكروا اسم شعبين أو قبيلتين وهما : الليلي والغازاندي وقالوا : إن بلادهم مرتفعة وفيها هضاب تتساقط عليها الثلوج أحياناً وأنها خصبة بالفواكه والقمح وغنية بالذهب يستخرجونه صافياً وقطعاً صغيرة وهو

كثير يتزينون به ويبيعونه بثمن بخس ويبادلون به الحديد والبرنز وزناً بوزن لقلتهما عندهم . وقد ظن الباحثون أن هذه المنطقة من مناطق بلاد عسير التي اشتهرت بمناجمها الذهبية .

« ٦ »

العرب البادية والرحالة

هذه الأمة من العرب البادية هي الطبقة الثالثة من العرب ، وهم أهل الخيام الذين لا أغلاق لهم ـ أي : أن منازلهم وبيوتهم لا تُغلق ـ لم يزالوا من أعظم الأمم في العالم ، وأكثر أجيال الخليقة ، يكثرون الأمم تارة ، وينتهي إليهم العز والغلبة بالكثرة ، فيظفرون بالمُلْك ، ويغلبون على الأقاليم والمدن والأمصار . ثم يهلكهم الترف والتنعم ، ويُغْلَبون ، ويُقْتَلون ، ويرجعون إلى باديتهم . وقد هلك المتصدّرون منهم للرئاسة بما باشروه من الترف ونضارة العيش ، وتصيير الأمر لغيرهم من أولئك المبعدين عنهم بعد عصور أخرى . هكذا سنّة الله في خلقه .

وللبادية منهم مع مَنْ يجاورهم من الأمم حروب ووقائع في كل

عصر وجيل ، بما تركوا من طلب المعاش ، وجعلوا طلب المعاش رزقهم في معاشهم بترصد السبيل وانتهاب متاع الناس . ولما استفحل المُلْك للعرب في الطبقة الأولى للعمالقة ، وفي الطبقة الثانية للتبابعة وكان ذلك عن كثرتهم ، فكانوا منتشرين لذلك العهد باليمن والحجاز ثم بالعراق والشام . فلما تقلص ملكهم وكان بالعراق منهم بقية أقاموا بعيدين من ظل الملك .

قال الطبري : إن تبعاً أبا كرب لما غزا العراق أيام « أردشير بُهمُن » كان طريقه على جبل طيء ومنه إلى الأنبار ، وانتهى إلى موضع الحيرة ليلاً فتحير وأقام ، فسمي المكان « الحيرة » ثم سار لوجهه وخلف هنالك قوماً من الأَزْد ، ولَخْم ، وجُذَام ، وعَاملة ، وقُضَاعة ، فاستوطنوا وبنوا ، ولحق بهم ناس من طيء وكلب والسكون وإياد والحرث بن كعب فكانوا معهم .

قال ابن الكلبي : إنّ بختنصّر لما نادى بغزو العرب افتتح أمره بالقبض على من كان في بلاده من تجارهم للميرة وأسكنهم الحيرة ، ثم خرج إليهم في العساكر ، فرجعت قبائل منهم إليه آثروا الإذعان والمسالمة ، وأنزلهم بالسواد على شاطيء الفرات ، وابتنوا موضع عسكرهم وسموه الأنبار . ثم أنزلهم الحيرة ، فسكنوها سائر أيامه .

قال هشام بن محمد : فلما مات بختنصّر انتقل الذين أسكنهم بالحيرة إلى الأنبار ومعهم مَنْ انضم إليهم من بني اسماعيل وبني معد ، وانقطعت طوالع العرب من اليمن عنهم . ثم كثر أولاد معدٍ وفرقتهم العرب ، وخرجوا يطلبون الريف مما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام . ونزلت قبائل منهم البحرين ، وبها يومئذٍ قوم من الأزد نزلوها

أيام خروج مزيقياء من اليمن . وكان الذين أقبلوا من تهامة من العرب فروع من قضاعة وأياد وغطفان وعدنان .

واجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على المقام والتناصر ، وعلى أن يكونوا يداً واحدة . وكان هذا الاجتماع والحلف أيام الطوائف ، وكان ملكهم قليلاً ومتفرقاً ، وكان كل واحد منهم يُغير على صاحبه ، ويرجع على أكثر من ذلك . فتطلعت نفوس العرب بالبحرين إلى ريف العراق ، وطمعوا في غلب الأعاجم عليه ، أو مشاركتهم فيه ، واغتنموا فرصة الخلاف بين الطوائف ، وأجمع رؤساؤهم المسير إلى العراق . فسكن قسم منهم أشلاء قفص ، وآخرون الأنبار ، وهم من إياد وغسان وكلهم تنوخ ، وسكن جماعة من قبائل كندة الحيرة ، وأقامت طالعة الأنبار وطالعة الحيرة لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم . ونزل كثير من تَنُوخ ما بين الحيرة والأنبار ، بادين في الخيام ، لا يأوون إلى المدن ، ولا يخالطون أهلها ، وكانوا يُسمّوْن عرب الضاحية ، وأول مَنْ ملك منهم أزمان الطوائف مالك بن فهم ، وبعده أخوه عمرو ، وبعده ابن أخيه جذيمة الأبرش .

ثم انتشروا بالشام والعراق ، وتخلف مَنْ تخلف منهم بالحجاز ، وهم خزاعة فنزلوا مرّ الظهران ، وقاتلوا جُرْهماً بمكة فغلبوهم عليها . ونزل نصر بن الأزد عُمان ، ونزلت غسان جبال الشراة ، وكانت لهم حروب مع بني معد إلى أن استقروا هنالك في التخوم ما بين الحجاز والشام .

ثم كان بالعراق والشام والحجاز أيام الطوائف ومن بعدهم في أعقاب ملك التبابعة اليمنية والعدنانية مُلْكٌ ودُوَلٌ ، وبعد أن درست

الأجيال قبلهم ، وتبدلت الأحوال السابقة لعصرهم ، فاستحق بذلك أن يكون جيلاً منفرداً عن الأول ، وطبقة مباينة للطباق السالفة . ولما لم يكن لهم أثر في إنشاء العروبيّة كما للعرب للعاربة ، ولا في لغتها عنهم كما في العرب المستعربة ، وكانوا تبعاً لمن تبعهم في سائر أحوالهم ، استحقوا التسمية بالعرب التابعة للعرب .

فكان الملك بالحيرة لِلَخْمٍ في بني المنذر . . وبالشام لغسّان في بني جفنة . . وبيثرب كذلك في الأوس والخزرج ابني قيلة ، وما سوى هؤلاء من العرب ، فكانوا ظواعن بادية ، وأحياء ناجعة ، وكانت في بعضهم رئاسة بدوية وراجعة في الغالب إلى أحد هؤلاء ، ثم نبضت عروق المُلْك في مضر وظهرت قريش على مكة ونواحي الحجاز أزمنة عرف فيها منهم ، ودانت الدول بتعظيمهم .

أنساب العرب :

اعلم أن جميع العرب يرجعون إلى ثلاثة أنساب ، وهي : عدنان . . وقحطان . . وقضاعة . فأما عدنان فهو من ولد اسماعيل بالاتفاق ، أما غير عدنان من ولد اسماعيل فقد انقرضوا ، فليس على وجه الأرض منهم أحد . أما قحطان ، فقال البخاري : هو من ولد اسماعيل ، فيكون اسمه على هذا : قحطان بن الهميسع بن أبين بن قيذار بن نَبَت بن اسماعيل . وباقي المؤرخين يقولون : إن قحطان هو يقطن المذكور في التوراة من ولد عابر ، وأن حضرموت من شعوب قحطان . وأما قضاعة فقيل : إنها حِمْيَر . وقال زهير : قضاعية وأختها

مُضرية . فجعل قضاعة ومضر أخوين ، وقال : إنهما من حمير بن معد بن عدنان .

« ٧ »

ملوك الحيرة

أما أخبار العرب بالعراق في الجيل الأول وهم العرب العاربة فلم يصل إلينا تفاصيلها وشرح حالها ، إلاّ أن قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق .

وأما في الجيل الثاني وهم العرب المستعربة فلم يكن لهم به دور فعّال ، وإنما كان ملكهم به بدوياً ، ورئاستهم في أهل الظواعن . وكان ملك العرب ـ كما مرّ ـ في التبابعة من أهل اليمن ، وكانت بينهم وبين فارس حروب ، وربما غلبوهم على العراق أو بعضه كما مرّ . لكن اليمن لم يغلبوا ثانياً على ما ملكوا منه ، وقد مرّ إيقاع بختنصر وإثخانه فيهم .

وكان في سواد العراق وأطراف الشام والجزيرة الأَزْمانيُّون من

بني إرم بن سام ، ومَنْ كان من بقية عساكر ابن تُبّع ، من جعفر طيء ، وكلب ، وتميم ، وجُرهم ، ومَنْ نزل معهم بعد ذلك من تنوخ ، ونمارة بن لَخْم ، وقنص بن معد . وكان ما بين الحيرة والفرات إلى ناحية الأنبار مواطن لهم ، وكانوا يسمون عرب الضاحية ، وكان أول من ملك منهم في زمن الطوائف : مالك بن فهم بن تَيْم الله بن أسد بن وَبْرَة بن ثعلبة بن حلوان بن قضاعة . وكان منزله مما يلي الأنبار . وملك بعده أخوه عمرو ، ثم صهرهما جذيمة الأبرش .

فلما تفرّق الأزد على المواطن نزل بنو زهران بالشراة وعُمان ، وصار لهم مع الطوائف ملك . وكان مالك بن فهم هذا من ملوكهم ، وكان بشاطىء الفرات من الجانب الشرقي عمرو بن الظرب بن حسان بن أُذينة من ولد السميدع بن هوثر من بقايا العمالقة . فكان عمرو بن الظرب على مشارف الشام والجزيرة ، وكان منزله بين الخابور وقرقيسا ، فكانت بينه وبين مالك بن فهم حروب ، هلك عمرو في بعضها ، وقامت بملكه من بعده ابنته الزباء ، واسمها : نائلة ، عند الطبري . وميسون ، عند ابن دريد .

ولم تزل الحرب بين مالك بن فهم والزباء بنت عمرو إلى أن ألجأها إلى أطراف مملكتها . وكان يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما في أيديهم . ومالك هذا هو أول مَنْ نصب المجانيق ، وأوقد الشموع ، وملك ستين سنة . ولما هلك قام بأمره من بعده جذيمة كما قال أبو عبيدة .

فلما ملك جذيمة بقيت الحالة بينه وبين الزباء كما هي حرب وسلم ، ثم إن الزباء رأت أنها لا تقدر عليه إلاّ بالحيلة ، فكتبت إليه

أنها لم تجد ملك النساء إلاّ قبحاً في السّماع ، وضعفاً في السلطان ، وأنها لم تجد لملكها موضعاً ، ولا لنفسها كفؤاً غير جذيمة ، وأنهت الرسالة بقولها « فأقبلْ إليّ لأجمع ملكي إلى ملكك ، وأَصِلَ بلادي ببلادك ، وتقلد أمري مع أمرك » تريد بذلك الغدر . وكان جذيمة ببقّة على الجانب الشرقي من الفرات . فلما أتى كتابها مع رسلها ، استخفّ جذيمة ما دعتْه إليه ، ورغب فيما أطمعته فيه ، فجمع أهل الحِجا والرأي من ثقاته ، فعرض عليهم ما عرضتْه عليه ، فاجتمع رأيهم بأن يسير إليها فيستولي على ملكها ، وكان فيهم « قصير » وكان عاقلاً أديباً حازماً ، أثيراً عند جذيمة ، فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال : رأي فاترِ ، وغدر حاضر . فذهبت كلمته مثلاً . ثم قال لجذيمة : الرأي أن تكتب إليها ، فإن كانت صادقة في قولها فلتُقْبِل إليك ، وإلاّ لم تمكنها من نفسك ، ولم تقع في حبالتها وقد وترْتَها وقتلت أباها . فلم يوافق جذيمة ما أشار به ، فقال قصير :

إني امرؤ لا يُميلُ العجزُ تزويتي إذا أتتْ دون شيء مرة الوذم

فقال جذيمة : لا ، ولكنك امرؤ رأيك في الكِنِّ لا في الضِّحِّ . فذهبت كلمته مثلاً . ودعا جذيمةُ عمرو بن عدي - ابن أخته - فاستشاره ، فشجعه على المسير ، وقال : إن قومي مع الزباء ، ولو قد رأوك صاروا معك . فأحبّ جذيمةُ ما قاله عمرو ، وعصى قصيراً ، فقال قصير : لا يُطاع لقصير أمرٌ . فذهبت كلمته مثلاً . واستخلف جذيمة عمرو بن عدي على ملكه وسلطانه ، وجعل عمرو بن عبد الجن معه على جنوده وخيوله ، وسار جذيمة في وجوه أصحابه ، فأخذ على شاطىء الفرات من الجانب الغربي ، فلما نزل دعا قصيراً

فقال : ما الرأي يا قصير ؟ فقال قصير : ببقَّة خلّفت الرأي . فذهبت مثلاً . قال وما ظنّك بالزباء ؟ قال : القول رداف ، والحزم عثراته تُخاف . فذهبت مثلاً . واستقبل رسلُ الزباء جذيمةَ بالهدايا والألطاف ، فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال : خَطْبٌ يسير في خطب كبير ـ فذهبت مثلاً ـ وستلقاك الجيوش ، فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت جنبتيك وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك ، فاركَب العصا فإنه لا يُشَقّ غباره ـ فذهبت مثلاً ، وكانت « العصا » فرساً لجذيمة لا تُجارى ـ وإني راكبها ومسايرك عليها . فلقيته الخيول والكتائب ، فحالت بينه وبين العصا ، فركبها قصير ، ونظر إليه جذيمة على متن العصا مولّياً فقال : ويل أمه جَزْماً على متن العصا . فذهبت مثلاً . وجرت العصا بقصير إلى غروب الشمس ، ثم نَفَقَتْ ، وقد قطعت أرضاً بعيدة ، فبنى عليها برجاً يقال له : برج العصا . وقالت العرب : خَيْرٌ ما جاءت به العصا ، فذهبت مثلاً . وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيل حتى دخل على الزباء ، فلما رأته تكشفت فإذا هي مضفورة الأسب ، فقالت : يا جذيمة أدأب عروس ترى ؟ فذهبت مثلاً . فقال جذيمة : بلغ المدى ، وجفّ الثرى ، وأَمْر غدرٍ أرى . فذهبت مثلاً . ودعت بالسيف ثم قالت : إن دماء الملوك شِفاء من الكَلَب . فأمرت بطست من ذهب قد أعدّته له ، وسقته الخمر حتى سكر وأخذت الخمر منه مأخذها ، فأمرت براهِشَيْه فقُطعا ، وقدّمت إليه الطست ، وقد قيل لها : إن قطر من دمه شيء في غَير الطست طُلِب بدمه ، وكانت الملوك لا تُقتل بضرب الأعناق إلاّ في القتال تكرمةً للملك ، فلما ضعفت يداه سقطتا ، فقطر من دمه في غير

الطست ، فقالت : لا تضيعوا دم الملك . فقال جذيمة : دعوا دماً ضيعه أهله . فذهبت مثلاً . فهلك جذيمة ، وجعلت الزباء دمه في ربعة لها .

أما قصير فخرج من الحي الذي هلكت العصا بين أظهرهم حتى قدم على عمرو بن عدي وهو بالحيرة ، فقال له قصير : أثائر أنت ؟ قال : بل ثائر سائر . فذهبت مثلاً . ووافق قصير الناس وقد اختلفوا ، فصارت طائفة مع عمرو بن عدي اللخمي ، وجماعة منهم مع عمرو بن عبد الجن الجرمي ، فاختلف بينهما قصير حتى اصطلحا ، وانقاد عمرو بن عبد الجن لعمرو بن عدي ، فقال قصير لعمرو بن عدي : تهيّأْ واستعد ولا تُطِلَّنَّ دم خالك . قال : وكيف لي بها وهي أمنع من عُقاب الجو ؟ فذهبت مثلاً .

وكانت الزباء سألت كاهنةً لها عن هلاكها ، فقالت : أرى هلاكك بسبب غلام مهين ، غير أمين ، وهو عمرو بن عدي ، ولن تموتي بيده ، ولكن حتفك بيدك ، ومن قِبَله ما يكون ذلك . فحذرت الزباء عمراً ، واتخذت لها نفقاً من مجلسها الذي كانت تجلس فيه إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فَجَأني أمر دخلت النفق إلى حصني . ودعت رجلاً مصوِّراً من أجود أهل بلاده تصويراً ، وأحسنهم عملاً ، فجهّزته وأحسنت إليه ، وقالت له : سِرْ حتى تُقْدم على عمرو بن عدي متنكراً ، فتخلو بحَشَمه ، وتنضم إليهم وتخالطهم ، وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور ، ثم اثبِتْ لي عمرو بن عدي معرفة ، فصوِّره جالساً وراكباً وقائماً ومتفضلاً ومتسلحاً بهيئته ولبسته ولونه ، فإذا أحكمت ذلك فأقبل إليَّ . فانطلق المصور حتى قدم على

عمرو بن عدي ، وصنع الذي أمرته به الزباء ، وبلغ من ذلك ما أوصتْه به ، ثم رجع إلى الزباء بعلم ما وجّهته له من الصور على ما وصفت . وأرادت أن تعرف عمراً فلا تراه على حالٍ إلاّ عرفته ، وحذرته ، وعلمت علمه .

أما قصير فقال لعمرو بن عدي : اجْدَعْ أنفي ، واضرب ظهري ، ودعني وإياها . فقال عمرو : ما أنا بفاعلٍ ، وما أنت لذلك مستحقاً عندي . فقال قصير : خلِّ عني إذن ، وخَلاَّكَ ذم . فذهبت مثلاً . فقال له عمرو ، فأنت أبْصَرُ . فجدع قصير أنفه ، وأثر آثاراً بظهره . فقالت العرب : لِمَكْرٍ ما جدع قصير أنفه ، وفي ذلك يقول المتلمس الشاعر :

وفي طلب الأوتار ما حزّ أنفه قصير ورام الموتَ بالسيف بَيْهَسُ

ثم خرج قصير كأنه هارب ، وأظهر أن عمراً فعل به ذلك ، وأنه زعم أنه مَكَر بخاله جذيمة ، وغرّه من الزباء فسار قصير حتى قدم على الزباء ، فقيل لها : إنّ قصيراً بالباب . فأمرت به فأدخل عليها ، فإذا أنفه قد جُدع ، وظهره قد ضرب ، فقالت : ما الذي أرى بك يا قصير ؟ قال : زعم عمرو أني قد غررت خاله ، وزينت له المصير إليك ، وغششته ، ومالأتُكِ ، ففعل بي ما ترين ، فأقبلت إليك ، وعرفت أني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك . فأكرمته وأصابت عنده من الحزم والرأي ما أرادت ، فلما عرف أنها استرسلت إليه ، ووثقتْ به ، قال : إنّ لي بالعراق أموالاً كثيرة ، وطرائفَ ، وثياباً ، وعطراً ، فابعثيني إلى العراق لأحمل مالي ، وأحمل إليك من بزوزها وطرائفها وثيابها وعطرها ، وتصيبين في ذلك أرباحاً عظيمة ، وبعض ما لا غنى للملوك

عنه . وكان أكثر ما يطرفها من التمر الصَّرفان ، وكان يعجبها فلم يزل قصير يُزيِّن ذلك حتى أذنت له ، ودفعت إليه أموالاً ، وجهزت معه عبيداً ، فسار قصير حتى قدم العراق ، وأتى الحيرة متنكراً ، فدخل على عمرو وأخبره الخبر وقال : جهّزني بصنوف البز والأمتعة ، لعلّ الله يمكن من الزباء فتصيب ثأرك ، وتقتل عدوك ، فأعطاه حاجته ، فرجع بذلك إلى الزباء ، فأعجبها ما رأت وسرّها ، وازدادت بقصير ثقة ، وجهزته ثانية فسار حتى قدم على عمرو ، فجهّزه ، وعاد إليها ، ثم عاد في المرة الثالثة وقال لعمرو : اجمع لي ثقاة أصحابك ، وهيىء الغرائر والمسوح ، واحمل كل رجلين على بعير في غرارتين ، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها ، وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فمن قاتلهم قتلوه ، وإن أقبلت الزباء تريد النفق جلَّلتها بالسيف ، ففعل عمرو ذلك ، وحمل الرجال في الغرائر بالسلاح ، وسار يكمن النهار ويسير الليل ، فلما صار قريباً من مدينتها تقدّم قصير فبشّرها وأعلمها بما جاء من المتاع والطرائف وقال لها : آخِر البَزِّ على القلوص . فأرسلها مثلاً . وسألها أن تخرج فتنظر إلى ما جاء به وقال لها : جئت بما صاءَ وصَمَت . فذهبت مثلاً .

ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ في الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت : يا قصير

مـــا لِلْجِمَـــالِ مَشْيُهـــا وَئيـــدا أجنـــدلاً يَحْمِلْـــنَ أم حـــديـــد

أم صـــرفـــانـــاً تـــارزاً شـــديـــدا

فقال قصير في نفسه :

بل الرجالَ قُبَّضاً قُعُودا

فدخلت الإبلُ المدينة حتى كان آخرها بعيراً مرَّ على بوّاب المدينة وكان بيده مِنْخَسَة ، فنخس بها الغرارة ، فأصابت خاصرة الرجل الذي فيها فلما توسَّطت الإبل المدينة أنيخت ، ودلّ قصير عمراً على باب النفق الذي كانت الزباء تدخله وكان قصير قد عرفه من الزباء نفسها إذ لما وثقت به تمام الثقة أرته على الباب وعرّفته خبره ـ وخرجت الرجال من الغرائر ، فصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الزباء تريد النفق ، فأبصرت عمراً ، فعرفته بالصورة التي صُوِّرت لها ، فمصَّتْ خاتمها وكان فيه السم ، وقالت : بيدي لا بيد ابن عدي . فذهبت كلمتها مثلاً . وتلقاها عمرو فجلّلها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعاً إلى العراق . ـ يقول الطبري : إن عمرو قدم على الزباء بأربعة آلاف رجل ، محملين بالصناديق ، على ألفي جمل ـ .

قال الطبري : وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأياً ، وأبعدهم مغاراً ، وأشدّهم حزماً ، وأول مَنْ استجمع له الملك بأرض العراق ، وسرى بالجيوش ، وكان به برص ، فكنوا عنه بالوضّاح إجلالاً له . وكانت منازله بين الحيرة والأنبار وهيت وعين التمر وأطراف النبّر إلى العمق والقطقطانيّة وجَفْنَة . وكانت تجبى إليه الأموال ، وتفد عليه الوفود ، وغزا في بعض الأيام طسماً وجديساً في منازلهم باليمامة ، وكان أكثر غزو جذيمة للعرب العاربة . وكان قد تكهّن ، وادّعى النبوة ، وعمل صنمين يقال لهما : الضَّيزنان .

أما قصة مولد عمرو بن عدي فهي :

كانت منازل إياد بعين أباغ ـ سميت باسم رجل من العمالقة نزل بها ـ وكان جذيمة كثيراً ما يغزوهم حتى طلبوا مسالمته . وكان بينهم غلام من لخم من بني أختهم واسمه : عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحرث بن مسعود بن مالك بن عمرو بن نمارة بن لخم . وكان له جمال وضرب ، وطلبه منهم جذيمة فامتنعوا من تسليمه إليه ، فألحّ عليهم بالغزو ، وبعثت إياد مَنْ سرق لها الضّيزنان ـ الصنمين ـ وعرّفوه أن الصنمين عندهم ، وأنهم يردّونهما بشريطة رفع الغزو عنهم ، فأجابهم إلى ذلك بشريطة أن يبعثوا مع الصنمين عدي بن نصر فكان ذّلك . ولما جاء عدي استخلصه لنفسه وولاه شرابه ، وهوِيته رقّاش ، وأحبته حبّاً جماً حتى راسلته ، فدافعها وامتنع عنها بحجة أنه يخاف من جذيمة ، فقالت له : اخطبني منه إذا أخذت الخمر منه واشهد عليه القوم ، ففعل ، وتزوجها من ليلته ، ثم أُعلم جذيمة الخبر ، فعضّ على يديه آسفاً ، وهرب عدي فلم يظهر له أثر ، ثم سأل جذيمة رقاش في أبيات شعر معروفة ، فأخبرته بما كان منه ، فعرف عذرها وكف . وأقام عدي عند أخواله إياد إلى أن هلك . وولدت رقاش منه غلاماً ، وسمته عمراً ، وربّي عند خاله جذيمة وكان يستظرفه . وكان من أمره مع الزباء ما فصلناه .

قال الطبري : وعمرو بن عدي أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب ، وأول من تجده أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق ، وإليه ينسبون ، وهم ملوك آل نصر .. ولم يزل عمرو ملكاً حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة ، مستبداً منفرداً يغزوهم ويغنم ،

وتفد عليه الوفود ، ولا يدين لملوك الطوائف ولا يدينون له . وملوك اليمن لم يكن لهم ملك مستفحل ، وإنما كانوا طوائف على المخاليف ، يغير كل واحد على صاحبه إذا استغفله ، ويربع خوف الطلب . حتى كان عمرو بن عدي فاتصل له ولعَقِبه الملك على مَنْ كان بنواحي العراق وبادية الحجاز ، فاستعمله ملوك فارس على ذلك إلى آخر أمرهم .

ثم ملك بعد عمرو امرؤ القيس بن عمرو خمساً وثلاثين سنة .

ثم ملك أخوه الحارث بن عمرو سبعاً وثمانين سنة .

ثم ملك عمرو بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي أربعين سنة .

ثم ملك المنذر بن امرىء القيس ، وهو محرِّق ، وإنما سمي محرّقاً لأنه أخذ قوماً حاربوه فحرقهم ، فسمي لذلك محرقاً .

ثم ملك النعمان بن امرىء القيس ، وأمه شُقَيْقة بنت ربيعة بن ذهل بن شيبان ، وهو صاحب الخورنق . ويقول ابن خلدون : إن سبب بنائه إياه أن يزدجرد الأثيم دفع إليه ابنه بهرام جور ليربيه ، وأمره ببناء هذا الخورنق مسكناً له وأسكنه إياه . ويقال : إن الصانع الذي بناه كان اسمه سنّمار ، وإنه لما فرغ من بنائه ألقاه من أعلاه فمات ، من أجل محاورة وقعت ، اختلف الناس في نقلها والله أعلم بصحتها . وذهب ذلك مثلاً بين العرب في قبح الجزاء .

وكان النعمان هذا من أفحل ملوك آل نصر ، وكانت له سنانان إحداهما للعرب والأخرى للفرس . وكان يغزو بهما بلاد العرب بالشام ويدوخها . وبينما هو جالس يوماً ينظر من الخورنق إلى ما بين يديه من

الفرات وما عليه من النخل والأجنّة والأشجار ، إذ ذكر الموت فقال : وما ينفع هذا مع نزول الموت وفراق الدنيا ! فتنسّك ، واعتزل الملك . وإياه عنى عدي بن زيد بقوله :

وتَفَكّر ربّ الخورنق إذْ اشـ ـرَفَ يوماً وللهدى تفكيرُ
سَرَّهُ حالُهُ وكثرة ما يَمْـ ـلك والبحرُ مُعرِضٌ والسديرُ
فارعَوَى قلبُهُ وقال وما غِبْـ ـطةُ حيّ إلى المماتِ يصير؟

وملك بعده المنذر بن النعمان ثلاثين سنة .

ثم ملك عمرو بن المنذر ، وهو الذي قتل الحارثُ بن ظالم عنده خالدَ بن جعفر بن كلاب ، فنذر دمه ، وطلبه ، فطلب الحارث ابنه ، وكان مسترضعاً في آل سنان ، فقتله .

ثم ملك عمرو بن المنذر الثاني ، وهو ابن هند ، وكان يلقب مضرّط الحجارة ، وكان قد جعل الدهر يومين ، يوماً يصيد فيه ، ويوماً يشرب ، فإذا جلس لشربه أخذ الناس بالوقوف على بابه ، حتى يرتفع مجلس الشراب ، فقال فيه طرفة بن العبد :

فَلَيتَ لنا مكانَ الملك عمروٍ رغوثاً حول حجرتنا تخُورُ
قسمْتَ الدهرَ في زمنٍ رخيٍّ كذاك الدهرُ يَعدلُ أو يجورُ
من الزّمرات أسبل قادماها فضرّتها مُركّنَةٌ درورُ
لعُمركَ إن قابوس بن هندٍ ليَخْلطُ ملكه نُوكٌ كثيرُ
لنا يومٌ وللكروانِ يومٌ تطيرُ البائسَاتُ ولا نطيرُ
فأما يومُهنّ فيومُ سوءٍ تطاردُهنّ بالخَسفِ الصّقورُ

وأمـا يـومنـا فَنَظَـلّ رَكْبـاً وقـوفـاً لا نَحُـلّ ولا نسيـرُ

ولم يزل طرفة يهجوه ويهجو أخاه قابوساً ، ويذكرهما بالقبيح ، ويشبب بأخت عمرو ، ويذكرها بالعظيم ، فكان مما قال فيهما :

إنّ شِـرارَ الملـوكِ قـد عُلِمُـوا طُـرّاً وأذْنـاهُـمُ مـن الـدّنَـسِ

عمـروٌ وقـابـوس وابـن أمهمـا مَـنْ يـأتِهـم للخنـا بمُحَتَبَـسِ

يـأتِ الـذي لا تُخـاف سبّتُـهُ عمـرو وقـابـوس قينتـا عُـرُسِ

يصبـح عمـرو علـى الأمـور وقـد خَضْخضَ مـا للـرجـال كـالفَـرَسِ

وكان المتلمس حليفاً لطرفة ، فكان يساعده على هجائه ، فقال لهما عمرو : قد طال ثواكما ، ولا مال قبلي ، ولكن قد كتبت لكما إلى عاملي بالبحرين يدفع لكل واحد منكما مائة ألف درهم ، فأخذ كل واحد منهما صحيفة ، فاستراب المتلمس بأمره ، فلما صارا عند نهر الحيرة لقيا غلاماً عباديّاً فقال له المتلمس : أتحسن أن تقرأ ؟ قال : نعم ! قال : اقرأ هذه الصحيفة ! فإذا فيها : إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه ، فطرح الصحيفة وقال لطرفة : في صحيفتك مثل هذا ، قال : ليس يجترىء على قومي بهذا ، وأنا بذلك البلد أعز منه . فمضى طرفة إلى عامل البحرين ، فلما قرأ صحيفته قطع يديه ورجليه ، وصلبه .

ثم ملك أخوه قابوس بن المنذر .

ثم ملك المنذر بن المنذر أربع سنين ، وكان هؤلاء الملوك من قِبَل الأكاسرة ، يؤدّون إليهم الطاعة ، ويحملون الخراج . وكانت

قبائل معدّ مجتمعة عليهم ، وكان أشدّها امتناعاً غطفان وأسد بن خذيمة ، وكان يأتيهم الرجل من معدّ على جهة الزيارة ، فيحيّونه ، ويكرمونه ، وكان ضمن إيّاهم من رؤساء القبائل الربيع بن زياد العبسي ، والحارث بن ظالم المرّيّ ، وسنان بن أبي حارثة ، والنابغة الذبياني الشاعر ، وكانت الملوك تعظّم الشعراء ، وترفع أقدارهم ، لما يبقون لهم من المدح والذكر ، فكان النابغة مقدماً عند ملوكهم ، ثم شبّب بامرأة المنذر في قصيدته التي يقول فيها :

سقط النّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه   فتناولتهُ واتّقتْنا باليدِ

فنذر المنذر دمه ، فهرب إلى الشام إلى ملوك غسان ثم اعتذر إليه .

وكان مع المنذر أهل بيت من بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تيم ، وكان من أهل هذا البيت عدي بن زيد العبادي ، وكان خطيباً شاعراً قد كتب بالعربية والفارسية ، وكان المنذر قد جعل عندهم ابنه النعمان ، فأرضعوه ، وكان في حجورهم ، فكتب كسرى إلى المنذر أن يبعث له بقوم من العرب يترجمون له الكتب ، فبعث بعدي بن زيد وأخوين له ، فكانوا في كتّاب كسرى يترجمون له .

فلما مات المنذر ، قال كسرى لعدي بن زيد : هل بقي أحد من أهل هذا البيت يصلح للملك ؟ قال : نعم ! إنّ للمنذر ثلاثة عشر ولداً ، كلهم يصلح لما يريد الملك ، فبعث فأقدمهم ، وكانوا من أجمل أهل بيت المنذر ، إلاّ النعمان فكان أحمر أبرش قصيراً . فأنزلهم عدي بن زيد كلّ واحدٍ على حدة ، وكان يكرم ويفضّل أخوة

النعمان عليه ، ويريهم أنه لا يرجوه ، ويخلو بهم رجلاً رجلاً ويقول لهم : إنْ سألكم الملك هل تكفوني العرب ؟ فقولوا له : لن نكفيكهم إلاّ النعمان . وقال عدي للنعمان : إن سألك الملك عن إخوتك فقل : إنْ عجزتُ عنهم فأنا عن العرب أعجز .

وكان من بني المنذر رجل يُقال له : الأسود ، وكانت أمه من بني الرباب ، وكان من الرجال ، وكان يحضنه أهل بيت من الحيرة يقال لهم : بنو مَرينا ، كانوا أشرافاً ، وفيهم رجل يقال له : عدي بن أوس بن مرينا ، كان مارداً شاعراً ، فقال للأسود بن المنذر ـ أخي النعمان ـ : إنك قد عرفت إني لك راجٍ ، وإن طلبتي إليك ورغبتي أن تخالف عدي بن زيد ، فإنه والله ما ينصحك أبداً . فلم يلتفت الأسود إلى قوله . فلما أمر كسرى عدي بن زيد أن يدخلهم عليه ، جعل يدخلهم رجلاً رجلاً ، فكان كسرى يرى رجالاً ما رأى مثلهم فإذا سألهم : هل تكفوني ما كنتم تكفون ؟ قالوا : لن نكفيك العرب إلاّ النعمان . فلما دخل عليه النعمان رأى رجلاً وسيماً ، فكلّمه فقال : هل تستطيع أن تكفيني العرب ؟ قال : نعم! قال : فكيف تصنع بإخوتك ؟ قال : إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز ! فملّكه ، وكساه ، وألبسه اللؤلؤ ، فلما خرج وقد مُلّك ، قال عدي بن أوس بن مرينا للأسود : دونك قد خالفت الرأي .

ثم إن عدي بن أوس أمر قوماً من أصحاب النعمان وخاصّته أن يذكروا عدي بن زيد عنده ويقولوا : إنه يزعم أن الملك عامله ، وإنه هو ولاّه ، ولولاه ما وُليَ ، وكلاماً نحو هذا ، فلم يزالوا يتكلمون بحضرة النعمان حتى أحفظوه وأغضبوه على عدي بن زيد ، فكتب

النعمان إلى عدي : عزمت عليك إلاّ زرتنيّ ! فاستأذن كسرى وقدم عليه ، فلما وصل حبسه النعمان في حبس .

وكان لعدي أخوان يقال لأحدهما أبَيّ والآخر سُمَيّ ، وكانا عند كسرى ، وأحدهما كان يحب صلاحه ، والآخر يسره هلاكه . وجعل عدي يقول الشعر في محبسه ويستعطف النعمان ، ويذكر له حرمته ، ويعظه بذكر الملوك المتقدمين ، فلم ينفعه ذلك . وجعل أعداؤه من آل مرينا يحرضون النعمان عليه ويقولون له : إن أفلت قتلك ، وكان سبب هلاكك ، فلما يئس عدي أن يجد عند النعمان خيراً كتب إلى أخيه :

أبْلـغْ أبَيّـاً علـى نـأيـه ... وهـل ينفـع المـرء مـا قـد عَلِـمْ

بـأن أخـاك شقيـقَ الفـؤا ... دِ وكنـتَ بـه والهـاً مـا سَلِـمْ

لـدى مَلِـكٍ مُـوثَـقٌ بـالحديـ ... ـدِ إمـا بحـقٍّ وإمـا ظُلِـمْ

فـلا تُلفيـنّ كـذاك الغـلا ... م إلا تجـدْ عـارمـاً يَعْتَـزِمْ

فـأرْضَـكَ أرْضَـكَ إن تـأتِنـا ... تَنَـمْ نَـوْمـةً ليـس فيهـا حُلُـمْ

وكتب إلى ابنه عمرو بن عدي ، وكانت له ناحية من كسرى :

لِمَـنْ ليـلٌ بـذي قَبْـسٍ طـويـلُ ... عظيـمٌ شقّـه حَـزَنٌ دخيـلُ

ومـا ظلـمُ امـرئٍ فـي الجيـد غـلٌّ ... وفـي السـاقيـن ذو حَلـقٍ طـويـلُ

ألا هَبَلَتْـكَ أمُـكَ عمـرو بعـدي ... أتقعـدُ لا أُفَـكَّ ولا تصـولُ

ألـم يحـزُنْـكَ أن أبـاك عـانٍ ... وأنـت مُغَيَّـبٌ غـالَتـكَ غُـولُ

تُغنّيـك ابنـةُ القَيْـنِ ابـن جَسْـرٍ ... وفـي كَلَـبٍ فيصحَبُـكَ الشَّمـولُ

فلـو كنـتَ الأسيـرَ ولا تَكُنْـه إذاً عَلِمَـتْ مَعَـدٌّ مـا أقـولُ

وإن أهلـكْ قـد أبليـتُ قـومـي بـلاءً كلـه حَسَـنٌ جميـلُ

ومـا قصرتُ في طَلَبِ المعـالي فتقْصُـرُنـي المنيـة أو تطـولُ

فقام أخوه وابنه ومَنْ معهما إلى كسرى ، فكلّموه في أمر عدي ، فكتب كسرى إلى النعمان يأمره بتخلية سبيله ، ووجّه في ذلك رسولاً ، فسأل أُبي بن زيد الرسول أن يبتدأ بعديّ . فابتدأ الرسول به ، فقال عدي : إنك إن فارقتني قُتلتُ ! قال : كلا ! إنه لا يجترىء النعمان على الملك . فبلغ النعمان مصير رسول كسرى إلى عدي ، فلما خرج من عنده ، وجّه النعمان إلى عدي مَنْ قتله ، فوضع على وجهه وسادة حتى مات ، ثم قال النعمان للرسول ، إن عدياً قد مات ، وأعطاه وأجازه ، وتوثّق منه ألا يخبر كسرى إلّا أنه وجده ميتاً ، وكتب النعمان إلى كسرى أن عدياً مات .

وكان عمرو بن عدي يترجم الكتب لكسرى . وطلب كسرى جارية ، ووصف صفتها ، فلم توجد له ، فقال له عمرو : أيها الملك ! عند عبدك النعمان بنات له وقرابات على أكثر مما يطلب الملك ، ولكنه يرغب بنفسه عن الملك ويزعم أنه خير منه ، فوجّه كسرى إلى النعمان يأمره أن يبعث إليه ابنته ليتزوجها ، فقال النعمان : أما في عين السواد وفارس ما بلغ الملك حاجته ؟ فلما انصرف الرسول خبّر كسرى بقول النعمان ، فقال كسرى : وما يعني بالعين ؟ قال عمرو بن عدي بن زيد : أراد البقر ، ذهاباً بابنته عن الملك . فغضب كسرى وقال ؛ ربّ عبد قد صار إلى أكبر من هذا .

وأمسك عنه كسرى شهراً ، ثم كتب إليه بالقدوم عليه ، فعلم النعمان ما أراد ، فحمل سلاحه وما قوي عليه ، ولحق بجبلَيْ طي ، وكانت سعدى بنت حارثة عنده ، فسأل طيئاً أن يمنعوه من كسرى !. فقالوا : لا قوة لنا به . فانصرف عنهم ، وجعلت العرب تمتنع من قبوله حتى نزل ببطن ذي قار ، في بني شيبان ، فلقي هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، فدفع إليه سلاحه ، وأودعه بنته وحرمته ، ومضى إلى كسرى ، فنزل ببابه ، فأمر كسرى به فقيِّد ، ثم وجّه به إلى خانقين ، فلقيه عمرو بن عدي بن زيد ، فقال : يا نُعَيْمُ ـ تصغيراً به وتحقيراً له ـ لقد شددت لك أواخي لا يقلعها إلاّ المهر الأرِن . فقال : أرجو أن تكون قد قرنتها بقارح . ثم طرحه إلى الفيلة فداسته ، وقُرِّب للأسود فأكلته .

ووجّه كسرى إلى هانىء بن مسعود : أن ابعث إليّ مال عبدي الذي عندك وسلاحه وبناته ، فلم يفعل هانىء ، فوجّه إليه كسرى بجيشٍ ، فاجتمعت ربيعة ، وكانت وقعة ذي قار الشهيرة ، فمزّقت العربُ العجمَ ، وكان أول يوم ظفرت فيه العرب بالعجم . وكانت سنة ثلاث من البعثة .

ويُروى عن رسول الله أنه قال : هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبي نُصروا .

وذكر البيهقي : أن دين بني نصر كان عبادة الأوثان ، وأول مَنْ تنصّر منهم النعمان بن الشقيقة . وقيل : بل النعمان الأخير . وملّكت العرب بتلك الجهات ابنه المنذر ، فقتله جيش أبي بكر (رض) .

وفي تواريخ الأمم : أن جميع ملوك الحيرة من بني نصر وغيرهم خمسة وعشرون ملكاً ، في نحو ستمائة سنة ، والله أعلم .

« ٨ »

ملوك كنـــدة

قال الطبري عن هشام بن محمد الكلبي : كان يخدم ملوك حمير أبناء الأشراف من حمير وغيرهم . وكان ممن يخدم حسّان بن تُبّع عمرو بن حجر سيد كندة لوقته ، وأبوه حجر هو الذي تسميه العرب آكل المرار ، وهو : حجر بن عمرو بن معاوية بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر بن معاوية بن كندة . وكان أخا حسّانَ بن تبّع لأمـه ، فلمـا دوّخ حسـان بـلاد العـرب ، وسـار فـي الحجـاز ، وهـمّ بالإنصراف ، ولّى على معد بن عدنان كلها أخاه حجر بن عمرو هذا ـ وهو آكل المرار ـ . فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة .

ولما سار حسّان إلى جديس خلفه على بعض أمور ملكه في حمير ، فلما قتل حسّان ، وولي بعده أخوه عمرو بن تبع ، وكان ذا

رأيٍ ونُبْلٍ ، فأراد أن يكرم عمرو بن حجر فزوّجه بنت أخيه حسان بن تبع ، وتكلمت حمير في ذلك وكان عندهم من الأحداث التي ابتلوا بها أن لا يتزوج في ذلك البيت أحد من العرب سواهم . فولدت بنت حسان لعمرو ، الحرثَ بن عمرو .

ثم ملك تبع بن حسان على حمير ، وهابته العرب وحمير ، وبعث بابن أخته الحرث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم إلى بلاد معد والحيرة وما والاها ، فسار إلى النعمان بن امرىء القيس بن الشقيقة ، فقاتله ، وقُتل النعمان وعدة من أهل بيته ، وهُزم أصحابه ، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر ، وأمه ماء السماء ، ـ إمرأة من النمر بن قاسط ـ وذهب ملك آل النعمان . ومَلَك الحرث بن عمرو ، وما كانوا يُملكون .

وفرّق الحرث ولدَه في معدٍ فملك حجراً على بني أسد ، وشرحبيل على بني سعد ، والرباب وسلمة على بكر وتغلب ، ومعد يكرب على قيس وكنانة . وفي كتاب الأغاني : أنه مَلّك ابنه شرحبيل على بكر وائل . . وحنظلة على بني أسد وطوائف من بني عمرو بن تميم . والرباب ومعد يكرب على قيس . . وسلمة على بني تغلب والنمر بن قاسط والنمر بن زيد مناة .

فأما شرحبيل : فإنه فسد ما بينه وبين أخيه سلمة ، واقتتلوا بالكلاب ما بين البصرة والكوفة على سبع من اليمامة ، وعلى تغلب السفاح وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم . وسبق إلى الكلاب سفيان بن مجاشع بن دارم من أصحاب سلمة في تغلب مع أخوته لأمه . ثم ورد سلمة وأصحابه فاقتتلوا عامة يومهم ، وخذلت

بنو حنظلة وعمرو بن تيم والرباب بكر بن وائل ، وانصرفت بنو سعد وأتباعها عن تغلب ، وصبر بنو بكر وتغلب ليس معهم غيرهم إلى الليل . ونادى منادي سلمة في ذلك اليوم : مَنْ يقتلْ شرحبيل ولقاتله مائة من الإبل ، فقُتل شرحبيل . وبلغ الخبر إلى أخيه معد يكرب ، فاشتدّ جزعه وحزنه على أخيه ، وزاد ذلك عليه ، حتى اعتراه منه وسواس هلك به . ومنع بنو سعد بن زيد مناة عيال شرحبيل ، وبعثوا بهم إلى قومهم . وأما سلمة فإنه فُلِجَ فمات .

وأما حجر بن الحرث فلم يزل أميراً على بني أسد إلى أن بعث رسله في بعض الأيام لطلب الأتاوة من بني أسد ، فمنعوها وضربوا الرسل . وكان حجر في تهامة ، فبلغه الخبر ، فسار إليهم في ربيعة وقيس وكنانة فاستباحهم وقتل أشرافهم ، وحبس عبيد بن الأبرص في جمعٍ منهم ، فاستعطفه بشعر بعث به إليه فسرحه وأصحابه وأوفدهم ، فلما بلغوا إليه هجموا عليه ببيته فقتلوه ، وتولّى قتله علباء بن الحرث الكاهلي ، كان حجر قتل أباه . وبلغ الخبر أمرأ القيس ، فحلف أن لا يقرب لذة حتى يدرك بثأره من بني أسد ، وسار صريخاً إلى بني بكر وتغلب فنصروه ، وأقبل بهم فأجفل بنو أسد . وسار إلى المنذر بن امرىء القيس ملك الحيرة ، وأوقع امرؤ القيس في كنانة فأثخن فيهم . ثم سار في أتباع بني أسد إلى أن أعيا ولم يظفر منهم بشيء ، ورجعت عنه بكر وتغلب . فسار إلى مؤثر الخير بن ذي جَدَن من ملوك حمير صريخاً ، فنصره بخمسمائة رجل من حمير ، لم يجمع من العرب سواهم . وجمع المنذر لامرىء القيس ومَنْ معه ، وأمدّه كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة والتقوا ، فانهزم امرؤ القيس ، وفرّ

حمير ، وما زال امرؤ القيس يتنقل في القبائل والمنذر في طلبه . حتى سار إلى قيصر صريخاً ، فأمدّه ، ثم سعى به الطمّاح عند قيصر أنه يُشّبب ببنته ، فبعث إليه بحلّة مسمومة كان فيها هلاكه ، ودفن بأنقرة .

قال الجرجاني : ولا يعلم لكندة بعد هؤلاء ملوك اجتمع لهم أمرها وأطيع فيها ، سوى أنهم قد كان لهم رئاسة ونباهة ، وفيهم سؤدد ، حتى كانت العرب تسميهم كندة الملوك .

وفي كتاب الأغاني : أن امرأ القيس نزل ـ لما سار إلى الشام ـ على السموأل بن عاديا ـ صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتَيْما المشهور بالزبّاء ـ وكان نزوله عليه بعد إيقاعه ببني كنانة على أنهم بنو أسد ، وتفرّق عنه أصحابه كراهةً لفعله ، واحتاج للهرب ، فطلبه المنذر ابن ماء السماء ، وبعث في طلبه جموعاً من إياد وبهرا وتنوخ ، وخذلت حمير امرأ القيس وتفرقوا عنه ، فالتجأ إلى السموأل ومعه أدراع خمسة مسماة كانت لبني آكل المرار يتوارثونها ، ومعه بنته هند وابن عمه يزيد بن الحرث بن معاوية بن الحرث ، ومال وسلاح كان بقي معه ، والربيع بن ضبع بن نزارة ، فأشار عليه الربيع بمدح السموأل فمدحه ونزل به ، فضرب لابنته قبة ، وأنزل القوم في مجلس له براح ، فمكثوا ما شاء الله . وسأله امرؤ القيس أن يكتب له إلى الحرث بن أبي شمر يوصله إلى قيصر ، ففعل ، واستصحب رجلاً يدله على الطريق ، وأودع بنته وماله وأدراعه عند السموأل ، وخلّف ابن عمه مع ابنته هند . ونزل الحرث بن ظالم غازياً على الأبلق . وكان ابن السموأل يتصيد ، فلما رجع وجد الحصن محاصراً فألقى قائد الحملة القبض عليه ، ونادى السموأل ليشهد ابنه ، فخرج ورأى

مشهداً مثيراً . . رأى ابنه أسيراً والسيف فوق عنقه . فهدّد القائد السموأل بأن ابنه سيموت إذا لم يسلم الوديعة ، فأبى السموأل من إخفار ذمته ، وقتل ابنه أمام عينيه ، فضرب به المثل في الوفاء لذلك .

قال ابن سعيد : كندة لقبٌ لثور بن عفير بن الحرث بن مرة بن أدد بن يشجب بن عبيد الله بن زيد بن كهلان ، وبلادهم في شرقي اليمن ، ومدينة ملكهم دَمّون ، وتوالى الملك منهم في بني معاوية بن عنزة . وكان التبابعة يصاهرونهم ويولونهم على بني معد بن عدنان بالحجاز ، فأول من ولي منهم حجر آكل المرار . الخ .

« ٩ »

حرب البسـوس

تعريـف :

١ ـ اسم كليب الحقيقي وائل وإنما لقب (كليبا) لأنه كان إذا سار أخذ معه جرو كلب صغير فإذا مرّ بروضة أو موضع يعجبه عشبه أو منظره أو ماؤه وضع الجرو فيه والشيء الطبيعي لمثل هذا الجرو الصغير أن يملأ جو ذلك المكان عواء وصياحاً وعواؤه هو إعلان للناس بأن لا يقربه أحد من الناس والويل ثم الويل لمن اقترب إلى ذلك الموضع ، لأنّ معنى الاقتراب من المكان الذي يعوي فيه الجرو هو إعلان الحرب على سيد العرب كليب . . وكان يقال له : كليب وائل ثم اختصر وأصبح كليبا بحذف وائل وكليب هو رئيس تغلب وقد توسع سلطانه لأن يكون سيد العرب بما فيهم قبيلة بكر رحمه .

٢ ـ مرة هو رئيس قبيلة بكر .

٣ ـ جليلة هي بنت مرة وقد تزوجها كليب .

٤ ـ جساس هو ابن مرة .

٥ ـ همّام هو ابن مرة أيضاً .

٦ ـ مهلهل . أخو كليب واسمه الحقيقي عدي . وقيل اسمه امرؤ القيس وهو خال امرىء القيس بن حُجر الكندي وإنما لقب مهلهلاً لأنه أول من هلهل الشعر ونظم القصائد .

٧ ـ البسوس وهي بنت منذر التميمية خالة جساس بن مرة .

٨ ـ إن رجلاً يقال له : سعد بن شميس بن طوق الجرمي وقد نزل عند البسوس وهي مجيرة له وكان عند الجرمي ناقة اسمها (سراب) وهي التي ضرب العرب بها المثل فقالوا : أشأم من سراب وأشأم من بسوس !! .

كانت العداوة متمكنة بين أخوين من أولاد الحارث بن عمرو آكل المرار أعظم ملوك كندة وهما : شرحبيل ملك بكر بن وائل وأخوه مسلمة ملك قبائل قيس عيلان ، وكانت بين الأخوين حرب طاحنة ومعها حوار طويل وقد انتهت بقتل شرحبيل وبقاء مسلمة وحده من أولاد الحارث . وقد عزم على أن يغزو قبائل نزار ومن تعاهد معها من القبائل اليمنية التي كانت الصولة والجولة لها فجمع ما استطاع أن يجمعه من المقاتلين لغرض الغزو والإنتقام ممن قتل إخوته !! .

وعرفت بالنية والجموع قبائل نزار فاتفق منهم بنو عامر بن

صعصعة وبنو وائل من بكر وتغلب وجعلوا عليهم ملكاً كليب بن ربيعة ليتصدى لأهل اليمن الذي جمعهم مسلمة . . وأخذ الفريقان يستعدون للمجابهة والقتال . . فسار بهم كليب وجعل على مقدمته رجلاً من التغلبيين يقال له : السفاح التغلبي وأمره أن يتقدمه ويصعد إلى جبل (خزاز) وهو واقع بين مكة واليضمرة . . وأوصى كليب السفاح التغلبي أن يصعد الجبل ولا يحس به أحد وأن يقيم عليه ويبقى هناك يترقب فإذا شعر بقدوم العدو أن يوقد على رأس الجبل نارين . . وبقي في ترقب ولم تمضِ من الليل ساعات حتى أطلت جموع العدو فأسرع وأشعل نارين على رأس الجبل وهو الإعلان عن قدوم العدو ! .

ولما رأى كليب النارين هو وقومه توجه بجيشه وأحاط به عند الصباح ونشبت معركة شديدة بين الطرفين وانتهت في المرحلة الأولى بانتصار النزاريين وانهزام اليمنيين .

وكان يوم (خزاز) يوم كليب ربيعة لأنه مكّن ملكه وأكسبه جامعاً كبيراً وثقة واسعة بين القبائل العربية الأخرى وامتد سلطان كليب إلى جميع نواحي الجزيرة .

وقد جوزي كليب أحسن جزاء فاجتمعت الكلمة عليه وتوجوه في الملك واختصوه بالرئاسة طول حياته وقد اختفى اسم مسلمة من الوجود ولم يعد له ذكر في القبائل وبذلك زالت آثار ملك الحارث بن عمرو ولم يبق له ولد يشار إليه أو يذكر اسمه ، وعم الفرح والسرور الجزيرة بكبيرها وصغيرها ونسائها وأطفالها لما كان لهذا البيت من غطرسة على العباد وظلم وتحدٍ واستبداد . وعمّ البِشر من ناحية ثانية في تتويج كليب الذين يأملون أن يكون عهده عهد عدالة ومساواة

ونَصَفة وأن يعيشوا فيه بحرية واطمئنان وسعادة ينسيهم مآسي الحارث وأولاده .

وانفرد كليب بالسلطان وأصبح سيد العرب ، وبدأ حياته الجديدة ـ أول ما بدأ ـ بالعدل والسيرة الحسنة والقول الجميل والفعل الأجمل ومشى الناس وراءه مكبرين مقدرين مع تقديم الطاعة المطلقة له . .

ولكن سرعان ما تبدَّدت الأحلام وامّحت الأماني لأن تلك الظاهرة الكريمة منه في بدء عهده لم تُطِل وقد كان عمرها عمر الورود وما أسرع أن جاءها الخريف فعرّاها من كل ثوب وسلبها كل زينة حتى أصبحت جرداء يابسة لا تصلح إلاّ للوقود .

لم تخيّب الآمال كليباً كان رئيس عشيرة فأصبح رئيس عشائر وسيد قبائل ، وكان محصوراً في دائرة ضيقة فأمسى مطلقاً في أراض فساح ومساحات فيها جبال وبطاح . غير أن الجاهل يعمل بنفسه ما لا يعمله العدو بعدوه والأحمق يسلط الخنجر على نحره وهو يحسب ويظن أنه يسلطه على خصمه . والسكران يخيّل إليه أنه في قصر شامخ محاط بالحدائق والرياض والأوراد وهو في الحقيقة في مستنقع نتن كريه !! .

مضت الفترة القصيرة والظاهرة الكريمة ليحل محلها مزاجه الذي أظهره على حقيقته السلطان المشرف الذي قدم إليه من ناس طيبين كرام برغبة وطيب نفس ! .

إنه رجع إلى أصله الذي نشأ عليه وتربى فيه وإن تربية رؤساء

القبائل من ذاك اليوم حتى إلى هذا اليوم تربية الامتيازات والظلم والاستغلال والعبودية فقد عاد هذا اللئيم إلى طبيعته الأولى وأصبح يهزأ ويحتقر شعباً طيباً جعله ملكاً عليه .

إنه يحكم بدافع شهوة وعلى طلب هواه فالعدل بين شفتيه وحسب هواه ، والناس كلهم عبيد له مسخرون وقد احتكر كل شيء في مملكته له ولمن ينتسب إليه .

المراعي الخصبة في البلاد هي لإبله وخيوله وبقية حيواناته والعذاب كل العذاب لمن دنا منها أو قرب إليها . ماء السماء الذي بعثه الله ليحيي الأرض والناس والحيوانات عامة هي ملك له ولدوابه . . والعشب الذي نبتته الأرض من أجل الإنسان ، كل الإنسان والحيوان كل الحيوان ، هي ملكه وخاصة به والويل ثم الويل لمن دنا وقرب .

وقد أصبح هذا الصعلوك الذي سماه أجلاف العرب ملكاً إذا جلس لا يستطيع أحد أن يمر بين يديه إجلالاً واحتراماً وإذا جلس وكان حوله حشد من الناس فلزام عليهم أن يظلوا واقفين إجلالاً له واحتراماً فالجلوس في هذه الحال له وحده لا شريك له . وليس لأحد من الناس أن يسعى وراء رزقه وقوت عياله إلاّ بإذنه . وليس لإبل أحد أن ترد الماء مع إبله ولا توقد نار مع ناره الموقودة وليس لبكري أو تغلبي أن يجير إنساناً إلاّ بإذنه ، وأما العرب الذين يقصدون العشب والماء من أجل عيالهم وحيواناتهم لا يستطيعون الإقامة أو الإرتحال إلا بإذنه وقد يغنيه عن ألف دليل جرو الكلب الذي ذكرناه في الأرقام الأولى . تعرف فيه الروح اللئيمة عند هذا الأحمق وقد ضربت الأمثال في هذا الجرو حتى قيل (أعزّ من كليب وائل) .

وإليك مثلاً من الأمثال التي كانت من الأسباب المهمة التي قتل من أجلها جساس كليباً . وهي تعطيك صورة كاملة عن نفسية كليب وطغيانه . . علم كليب بأن بني بكر مروا على غدير ليسقوا إبلهم فمنعهم عنه كليب وقال : لا يذوقون منه قطرة واحدة ثم ارتحلوا إلى غدير آخر فاتبع آثارهم وأبعدهم عنه وهو يقول : (لا وربي لا يذوقون من مائه قطرة) ثم انتقلوا إلى غدير آخر فلحقهم ومنعهم عنه ومنع إبلهم . . فحاروا في أمرهم وهم لا يدرون إلى أين يتجهون ؟ ومن أين يشربون وتشرب إبلهم وقد أحرق العطش أحشاء الإبل حتى نحف الأطفال من شدة العطش وأوشكوا على الهلاك وهاجت الإبل من شدة العطش وأشرف الجميع على الهلاك . . وأخذوا يفكرون ويفتشون عن ماء لا يصلها كليب فاهتدوا إلى غدير يسمى غدير (الذنائب) في هضاب نجد وكليب لا يزال يلاحق آثارهم هو وجنوده حتى عرفوا الغدير والمكان فلحقهم ومنعهم . هذا وجساس يسجل في قلبه كل شيء .

عرفت أن كليباً تزوج بنت مرة من قبيلة شيبان البكرية وهي معروفة بذكائها وشجاعتها وعقلها وجمالها في عصرها وكان لأبيها مرة عشرة بنين وكان جساس أصغرهم وأشجعهم وأكثرهم إباء وقد لقبه قومه : بحامي الجار ومانع الذمار .

دخل كليب على امرأته جليلة يوماً فقال لها : إي يا جليلة ! هل تعلمين في الدنيا أحداً أمنع مني ذمة وأعظم جواراً ؟ فسكتت جليلة ولم تجبه بشيء . . ثم أعاد عليها ثانية نفس السؤال فسكتت فغضب كثيراً من سكوتها وأحس أن في نفسها شيئاً لا تريد أن تصارح به . .

فأعاد السؤال نفسه مرة ثالثة : يا جليلة إن سكوتك عن الجواب يؤلمني بيني ما في نفسك وأصدقيني الخبر : هل تعلمين على وجه الأرض واحداً أمنع مني ذمة ؟ فأجابته جليلة بأنف وكبرياء على مستوى اعتزازه وغروره . أجابت : نعم أخي جساس وأصحابه .

سكت كليب وفي نفسه أشياء ولكنه لم يجبها بشيء . . ومضت أيام ولم يفاتحها بهذا الأمر غير أن الألم أكل قلبه لأنها فضلت أو ساوت بين أخيها جساس وأصحابه به .

وذهب يوم وجاء آخر كانت فيه جليلة تغسل رأسه وتسرح شعره فاجأها بالسؤال : من هو أعز الرجال في قبيلة وائل فقالت من غير تفكير : أخواي جساس وهمّام . فأفلت رأسه من يدها وخرج غاضباً وفي نفسه كل شيء من الألم . . ومن هنا سيبدأ الشر وسيكون الانتقام وسيتحول الحقد أعمالاً تحس وأفعالاً يعرفها الناس .

كانت لجساس خالة اسمها : البسوس وقد نزل عليها رجل يقال له سعد بن شميس بن طوق الجرمي وكان للجرمي ناقة اسمها : (سراب) ترعى مع نوق جساس فخرج كليب يوماً يتعهد الإبل ومراعيها فأتاها وأخذ يتجول فيها وكانت إبله وإبل جساس مختلطة فنظر كليب إلى الناقة فأنكرها ثم سأل عنها فقال له جساس وكان معه هذه ناقة جارنا الجرمي فقال كليب : لا تعد هذه الناقة إلى الحمى فقال جساس لا ترعى إبلي مرعى إلاّ وهذه معها . . فقال كليب : لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها . . فقال جساس لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبتك !! ثم تفرقا . . ورجع إلى بيته وأعاد على امرأته سؤاله المكرر سابقاً : أترين في العرب رجلاً مانعاً

مني جاره ؟ قالت : لا أعلمه إلاّ جساساً فحدثها الحديث وكان بعد ذلك إذا أراد الخروج إلى الحمى حاولت منعه وناشدته الله ألاّ يقطع رحمه وكانت بالوقت نفسه تنهى أخاها جساساً أن يسرح إبله مع إبل كليب .

وفي اليوم الثاني خرج كليب إلى الحمى وجعل يتفحص الإبل فرأى ناقة الجرمي فرمى ضرعها فأنفذه فولت هاربة ولها عجيج حتى بركت بساحة دار صاحبها . . فلما رأى ما بها صرخ بالذل وسمعت البسوس صراخ جارها فخرجت إليه فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها ثم قالت واذلاه ، وجساس يرى ويسمع فخرج إليها وأخذ يهدئها بلطف ويطلب منها أن تسكّن الجرمي ، وقال لها سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة ، سأقتل غلالاً وغلال هو فحل إبل كليب لم يكن له نظير في عالم الفحول ولم ير في زمانه مثله . نعم ، إن جساساً قال لهما سأقتل غلالاً ولكنه يضمر أنه سيقتل صاحب غلال سيقتل الذي أدمى وأتلف ضرع سراب ، سيقتل كليباً نفسه ، لأنه أصبح معبأ من كليب ومن كثرة تحدياته ومن طغيانه ومضايقته لجساس وقبيلته حتى الماء منعه عنهم وليس الضرع الذي سيقتل كليباً كما يفهم القارىء بل أصبحت القضية مع كليب قضية حياة أو موت !؟ .

وكان لكليب جاسوس في حي جساس فسمع ورأى كل ما كان فذهب رأساً ونقل لكليب تفاصيل ما سمع وما شاهد ، وقال له بالوقت نفسه إن تهديد جساس ووعيده ويمينه الذي أقسمه كان موجهاً لقتل غلال الفحل ولم يكن بالحسبان أبداً أن غلالاً هو رمز وتمويه . .

وصمم جساس على تنفيذ الإرادة وأخذ يراقب بعين ساهرة

وبقلب واع تحركات كليب . .

علم يوماً أن كليباً خرج آمناً مطمئناً على عادته إلى الحمى وراقبه حتى بعد عن البيوت وعيون الناس ، ركب جساس فرسه وحمل رمحه وتوجه مسرعاً نحو كليب فلحقه قبل أن يصل إلى هدفه ، وما أن أحس كليب بأن وراءه جساساً وقف في محله فقال له جساس : يا كليب الرمح وراءك ، يعني خذ حذرك وتهيأ للبراز ها أنا جئتك لأنتقم منك لا من غلال . فقال له كليب إن كنت صادقاً فأقبل إليّ من أمامي ، قال كليب ذلك ولم يلتفت إلى الوراء أبداً . . ولما لم يفده الحذر ولم يعبأ لكلام جساس طعنه بالرمح طعنة أرداه بها عن فرسه يعالج الموت ويتخبط بدمائه . . فقال كليب يا جساس : أغثني بشربة ماء فذكره جساس بملاحقته من غدير لغدير ليمنعه هو وإبله وأهله من الماء ومما قال له : الآن أحسست أن الماء ضروري للإنسان وكان مع جساس رفيق فنزل عن فرسه وسقاه ماء وبعد أن شرب مات فأمر جساس الرجل الذي سقاه وهو رفيق جساس اسمه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان ، أمره أن يجعل عليه أحجاراً حتى لا تأكله السباع . . وفي ذلك قال مهلهل بن ربيعة أخو كليب :

قتيل ما قتيل المرء عمرو ... وجساس بن مرة ذي صريم

أصاب فؤاده بأصم لدن ... فلم يعطف هناك على حَميم

فإن غدا وبعد غد لرهن ... لأمر ما يقام له عظيم

جسيما ما بكيت به كليبا ... إذا ذكر الفعال من الجسيم

سأشرب كأسها صرفا وأسقي ... بكأس غير منطقة مليم

ولما قتل جساس كليباً انصرف على فرسه مسرعاً وقد بدت ركبتاه فلما نظر أبوه مرة إلى ذلك قال : لقد أتاكم جساس بداهية ما رأيته قط بادي الركبتين إلى اليوم . . فلما وقف على أبيه قال : مالك يا جساس ؟ قال : طعنت طعنة يجتمع بنو وائل لها غداً رقصا . قال : ومن طعنت ؟ لأمك الثكل ! قال : قتلت كليباً ، قال : أفعلت ؟ قال : نعم ، قال : بئس والله ما جئت به قومك فقال جساس :

تأهب عنك أهبة ذي امتناع فإن الأمر جل عن التلاحي

فإني قد جنيت عليك حربا تغص الشيخ بالماء القراح

فلما سمع أبوه قوله خاف خذلان قومه لما كان من لائمتهم إياه فقال يجيبه :

فإن تك قد جنيت عليّ حرباً تغص الشيخ بالماء القراح

جمعت بها يديك على كليب فلا وكُلٌ ولا رث السلاح

سألبس ثوبها وأذود عني بها عار المذلة والفضاح

ثم إن مرة دعا قومه إلى نصرته فأجابوه وجلوا الأسنة وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتهيأوا لحرب لا يعرف مداها . .

وكان همّام بن مرة أخو جساس ومهلهل أخو كليب في ذلك الوقت يشربان فبعث جساس إلى همام جارية لهم تخبره الخبر ولما وصلت إليهما أشارت إلى همام فقام إليها فأخبرته الخبر فاضطرب وتغير لونه فقال له مهلهل : ما قالت لك الجارية ؟ وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً فذكر له ما قالته الجارية وأحب أن يعلمه

ذلك في مداعبة وهزل فقال له مهلهل : إست أخيك أضيق من ذلك ! فأقبلا على شربهما . فقال له مهلهل : إشرب فاليوم خمر وغداً أمر . فشرب همام وهو حذر خائف ولما سكر مهلهل عاد همام إلى أهله وعاد مهلهل إلى أهله . وعرف الناس كلهم بقتل كليب فذهبوا إليه ودفنوه . . ولما دفن شقت الجيوب وخمشت الوجوه وخرج الأبكار وذوات الخدور وقمن للمآتم . فقالت النساء لأخت كليب : أخرجي جليلة أخت جساس عنا فإن وجودها فيه شماتة وعار علينا ، وجليلة هي زوجة وأخت جساس كما عرفت فقالت لها أخت كليب : اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت قاتلنا وشقيقة واترنا فخرجت حزينة ذليلة فلقيها أبوها مرة وقال لها : ما وراءك يا جليلة فقالت : ثكل العدد وحزن الأبد وفقد خليل وقتل أخ عن قليل وبين هذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد . . فقال لها : أويكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع ورب الكعبة . أَلِبدن تدع لك تغلب دم ربها ؟! .

ولما خرجت جليلة من المأتم قالت أخت كليب : رحلة المعتدي وفراق الشامت ، ويل غداً للآل مرة من الكرة بعد الكرة . . فبلغ قولها جليلة فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقّب وترها ، أسعد الله أختي ثم أنشدت قصيدة ، منها :

يا ابنة الأقوام إن لمتِ فلا ... تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت الذي ... يوجب اللوم فلومي واعذلي
فعل جساس على وجدي به ... قاطع ظهري ومدن أجلي
يا قتيلاً قوض الدهر به ... سقف بيتيّ جميماً من عل

إنني قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لي

وأما مهلهل فإنه لما صحا لم يرعه إلاّ النساء يصرخن ألا إن كليباً قتل فقال من قصيدة في هذه الحادثة :

كنا نغار على العواتق أن ترى بالأمس خارجة عن الأوطان

فخرجن حين ثوى كليب حسرا مستيقنات بعده بهوان

فترى الكواعب كالظباء عواطلا إذ حان مصرعه من الأكفان

كان الذخيرة للزمان فقد أتى فقدانه وأخل ركن مكاني

ثم انطلق إلى المكان الذي قتل فيه فرأى دمه وأتى قبره فوقف عليه ثم قال :

إن تحت التراب حزماً وعزماً وخصيما ألدّ ذا عملاق

حية في الوجار أن بد لاينـ ـفع منه السليم نفث الراقي

ثم جز شعره وقصر ثوبه وهجر النساء وترك الغزل وحرم القمار والشراب وجمع إليه قومه وأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو في نادي قومه فقالوا له : إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة وإنا نعرض عليك خلالاً أربع لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع ، إما أن تحيي لنا كليباً أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به أو هماماً فإنه كفء له أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه فقال لهم : أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه وأما دفعي جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد ، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم

عشرة وكلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره وأما أنا فما هو إلاّ أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت . ولكن عندي خصلتان أما إحداهما فهؤلاء أولادي الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم وأما الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر . فغضب القوم وقالوا : قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا به اللبن من دم كليب ؟ .

ورجعوا ولم يستفيدوا شيئاً ، فسألهم المهلهل : ماذا صنعتم ؟ فأجابوه بما حدث . فقال : والله ما كان كليب بناقة لها ثمناً ، وإن الدم لا يغسله إلاّ الدم ، أما البكريون فمنهم من أيد بني تغلب وقالوا : لقد أنصف القوم بطلبهم وهؤلاء كرهوا مساعدة بني مرة ووقفوا بعيدين عن القتال . . ومنهم من غلبت عليه العصبية القبلية .

وأما الحارث بن عباد أحد سادات بكر ومن فرسانها المعدودين فقد عز عليه قتل كليب واعتزل بأهله وأولاده وأقاربه وحل وتر قوسه ونزع سنان رمحه وأقسم أن لا يدخل حرباً مع قومه لأنهم هم المعتدون . . وقد دار حوار طويل ومناقشات كثيرة بينه وبين وجوه الذين أصروا عليه في أن يدخل الحرب معهم ولكنهم لم يفلحوا فنشبت الحرب وظل بعيداً عنها .

وابتدأت الحرب بصورة متقطعة بين رجل ورجل أو بين رجلين ورجلين وقد تعدى الرجلين إلى أكثر بأن تكون أربعة أو خمسة .

وأول حرب جدية مخيفة كانت على غدير يقال له : (النْهي) كان بنو بكر نازلين عليه وفيهم أولاد مرة وعند الفجر فاجأهم المهلهل

ببني تغلب وكان قتال مرير انتصر فيه التغلبيون وكثر القتلى في صفوف البكريين ، أما بنو مرة فلم يصب منهم أحد في هذه المعركة . . ثم التقوا مرة ثانية بغدير الذنائب فكانت الغلبة لتغلب أيضاً . . ثم التقوا بالواردات فظفرت كذلك بنو تغلب . . والتقوا في بعض الليالي فإذا أبو نويرة أحد أسياد تغلب يفاجىء جساساً وهو يصول على جواده ويحرض قومه على القتال فاستوقفه وقال له : إي جساس ، إلى أين المفر ؟ اختر إما الصراع باليدين أو الطعان بالرمح أو القراع بالسيف فاختار جساس الصراع فاصطرعا وطال بينهما الصراع دون أن يتمكن أحدهما من الآخر . . ولما أبطأ كل واحد منهما على أصحابه خرجوا يطلبونهما فوجدوهما يصطرعان وقد كاد جساس أن يصرع أبا نويرة ففرقوا بينهما . . ثم التقوا بمكان يقال له القصيبات وكان أعنف قتال في ذلك اليوم منذ بدأت الحرب بين الفريقين فغلبت بكر وانهزمت من الميدان وطاردهم فرسان تغلب يقتلون كل من ظفروا به وهم ينادون : يا لثارات كليب . . وأخذ المهلهل يتفقد بنفسه القتلى وكان كلما رأى رجلاً معروفاً أو سيداً قتيلاً التفت إلى من معه وقال : كل هؤلاء لا يغنون عن كليب شيئاً وبينما هو يتفحص فإذا به يصيح بصوت متحرق : هذا : هو همام هذا صديقي ونديمي في الحياة ويل لقاتله : ما كان أغناك يا همام عن أن تخوض الحرب ضد صاحبك . . وغدا يقبل رأسه ووجهه ويمسحه بيديه والدموع تنهمر من عينيه فأمر بحمله إلى مضاربه عزيزاً مكرماً ، ووقف على قبره وقال : والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز عليّ منك . . . ثم أخذ بنو تغلب يطلبون جساساً ويلتمسون أخباره من هنا وهناك . . ولما عرف أبوه مرة أن القوم لن يتركوه بأية حال قال

لولده . يا ولدي إنك رأيت أن القوم جادون في طلبك ولن يكفوا حتى يريقوا دمك . فقال جساس ماذا أفهم من كلامك يا أبي ؟ فقال مرة : إن العاقل من ابتعد عن مواقع الخطر . فغضب جساس وقال : أتحملني يا أبي على الهرب ؟ أأترك قومي تمزقهم سيوف الأعداء ورماحهم وأنا لا أشاركهم في قتالهم ؟ وطال الحوار بين جساس وأبيه وبعد إلحاح كبير من مرة على ولده جساس اقتنع جساس بأن يمتثل لأمر أبيه ويذهب إلى الشام حيث أخواله هناك فبعثه أبوه إلى الشام وبعث معه خمسة رجال فعرف المهلهل بارتحال جساس إلى الشام فندب أبا نويرة ومعه ثلاثون مقاتلاً من أبطال تغلب فساروا مجدين حتى أدركوا جساساً وهو في طريقه إلى الشام فقاتلهم جساس أشد قتال وقتل أبو نويرة وأصحابه ولم يبق منهم إلّا رجلان وقد جرح في هذه المعركة جساس ومات متأثراً بجراحه وقتل أصحابه أيضاً وسلم منهم رجلان فعاد كل واحد من السالمين إلى أصحابه فلما سمع مرة بقتل ولده جساس قال إني أحزن إذا قتل هو ولم يقتل منهم أحداً فقال الرجلان اللذان كانا معه وسلما : إن جساساً قتل بيده أبا نويرة رئيس القوم وقتل بيده ـ كذلك ـ منهم خمسة عشر رجلاً ما شاركه في قتلهم منا أحد ونحن قتلنا الباقين منهم .

ولما قتل جساس أرسل أبوه مرة إلى مهلهل : إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساساً فاكفف عن الحرب ودع اللجاج والإسراف وأصلح ذات البين فهو أصلح للحيين فلم يجب مهلهل إلى ذلك ! . . وكان الحارث بن عباد قد اعتزل الحرب كما عرفت فلما قتل جساس وهمام ابنا مرة بعث ابنه بجيرا إلى مهلهل وبعث معه كتاباً قال فيه : إنك قد

أسرفت في القتل وأدركت ثأرك سوى ما قتلت من بكر وقد أرسلت إليك ابني فإما أن تقتله بأخيك فتكون أصلحت بين الحيين وإما أن تطلقه فتكون أصلحت ذات البين فقد هلك من الحيين في الحروب من كان بقاؤه خيراً لنا ولكم فلما قرأ الكتاب أخذ بجيرا فقتله وقال هذا بشسع نعل كليب فلما سمع أبوه بقتله ظن أنه قتله من أجل الصلح فارتاحت نفسه ولكنه لما عرف أنه قال : هذا بشسع نعل كليب غضب وقال :

قربا مربط النعامة مني   لقحت حرب وائل عن حيال
قربا مربط النعامة مني   شاب رأسي وأنكرتني رجالي
لم أكن من جناتها علم اللـ   ـه وإني بحرها اليوم صالي

فأتوه بفرسه النعامة ولم يكن في زمانها مثلها فركبها وولي أمر بكر وشهد حربهم وكان أول يوم شهده يوم (قِضّة) وهو يوم تحلاق اللمم وسمي كذلك لأن بكراً حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضاً . وقاتل يومئذٍ الحارث بن عباد قتالاً شديداً فقتل في تغلب مقتلة عظيمة وفيه يقول طرفة :

سائلوا عنا الذي يعرفنا   بقوانا يوم تحلاق اللمم
يوم تبدي البيض عن أسوفها   وتلف الخيل أفواج النعم

وفي هذا اليوم أسر الحارث بن عباد مهلهلاً وهو لا يعرفه فقال له : دلني على مهلهل وأنا أطلق سراحك فقال له المهلهل : عليك عهد الله بذلك إن دللتك عليه قال : نعم قال : فأنا مهلهل . فجز ناصيته وتركه وقال :

لهف نفسي على عدي ولم أعر ف عـــديـــا إذا أمكتنـــي اليـــدان

وكانت الأيام التي اشتدت فيها الحرب بين الفريقين خمسة : يوم عنيزة تكافأوا فيه وتناصفوا واليوم الثاني يوم واردات امتازت فيه تغلب عن بكر واليوم الثالث (الحنذ) امتازت فيه بكر عن تغلب واليوم الرابع يوم القصيبات كانت الغلبة فيه لتغلب واليوم الخامس يوم (قضة) وتساوى فيه الفريقان ثم كانت أيام غبر الخمسة منها يوم (النقية) ويوم الفصيل كانت الغلبة لبكر ثم لم يكن بينهما زحف وإنما كانت إغارات ودامت الحرب بينهما أربعين سنة .

ثم إن مهلهلاً قال لقومه قد رأيت أن تبقوا على قومكم ونجعل لهذه الحرب نهاية وإن قومكم يحبون صلاحكم ومالمتكم على ما كان من وتركم . فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها فكيف وقد فني الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد ونائحات لا تزال تصرخ في النواحي ودموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن وسيوف مشهـورة ورمـاح مشـرعـة وإن القـوم سيـرجعـون إليكـم غـداً بمـودتهـم ومواصلتهم وتتعطف الأرحام حتى تتواسوا فكان كما قال .

ثم قال مهلهل : أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم ولا أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب وأخاف أن أحملكم على الاستئصال وأنا سائر إلى اليمن .

وفارقهم وسار إلى اليمن ونزل في جنب وهي حي بن مذحج فخطبوا إليه ابنته فرفض فأخبروه على تزويجها وساقوا إليها جلوداً من أدم فقال في ذلك :

أعـزز علـى تغلـب بمـا لقيـت أخـت بنـي الأكـرميـن مـن جشـم

أنكحهـا فقـدهـا الأرقـم فـي جنـب وكـان الحبـاء مـن أدم

لـو بـأبـانيـن جـاء يخطبهـا ضـرج مـا أنـف خـاطـب بـدم

الأراقم بطن من جشم بن تغلب يعني حيث فقدت الأراقم وهم عشيرتها تزوجها رجل من جنب أدم .

ثم إن مهلهلاً عاد إلى ديار قومه فأخذه عمرو بن مالك بن ضبيعة البكري أسيراً بنواحي هجر فأحسن إساره فمرّ عليه تاجر يبيع الخمر قدم بها من هجر وكان صديقاً لمهلهل فأهدى إليه وهو أسير زقاً من خمر فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكراً وشربوا عند مهلهل في بيته الذي أفرد له عمرو فلما أخذ فيهم الشراب تغنى مهلهل بما كان يقوله من الشعر وينوح به على أخيه كليب فسمع منه عمرو ذلك فقال : إنه لريان والله لا يشرب عند ماء حتى يرد زبيب وهو فحل كان له لا يرد إلاّ خمساً في حمارّة القيظ فطلب بنو مالك زبيباً وهم حراص على أن لا يهلك مهلهل .

ولما تقدمت بالمهلهل السن أصابه الضعف والخرف وانصرف عنه الناس وتركوه يبكي أخاه وحده . وقد كان له عبدان يخدمانه فسئما من خدمته وخرفه وتمنيا موته وفي يوم من الأيام خرج بهما إلى السفر ولما وصلوا إلى الصحراء عزما على قتله والتخلص منه فأحس بنيتهما من خلال تحركاتهما فكتب على خشبة رحله هذا البيت :

مـن مبلـغ الحييـن أن مهلهـلاً لله دركمـا ودر أبيكمـا

ولم يزد على ذلك شيئاً وحين رأى العبدان الفرصة مؤاتية لقتله هجما عليه وقتلاه ورجعا إلى قومه يبكيان وينحبان ويصيحان : لقد مات مهلهل . . مات المهلهل ودفنّاه في الفلاة لكن بنته قرأت ما على الخشبة وبقيت حائرة : ماذا أراد المهلهل من هذا الشعر ؟ وعند ذلك صاحت بقومها ، إن المهلهل لا يقول هذا الشعر وحده وإنما هو أراد :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا ... أمسى قتيلاً في الفلاة مجدلا
لله دركما ودر أبيكما ... لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فضربوا العبدين حتى أقرّا بقتله . . وهكذا انتهت حياة الجبار العتيد الذي شغل عرب الجزيرة أربعين سنة في حروب طاحنة مهلكة حتى ضجت الجزيرة وسئمت الحياة .

من هذه الحروب التافهة التي يضحى بآلاف من الشباب الأبرياء من أجل ضرع ناقة أو من أجل فرس سبق فرساً أو من أجل عجوز خرفة صاحت واذلّاه لأمر وضيع وغير ذلك من الترهات والسفاسف من هذه السخافات في الجاهلية تستطيع أن تعرف قيمة الإسلام ومبادئه واحترامه للإنسان ، الإسلام الذي جاء ليكون حرباً على تلك التقاليد البالية التي لا تعترف بها حتى شريعة الغاب . .

وكانت الحروب التي حدثت بعد الإسلام بين المسلمين أنفسهم لا تقل في الجرائم عن جرائم عرب الجاهلية . .

النبي فوق رؤوسهم والقرآن بين أيديهم والعدل في ألواحهم وهم مع هذا كله كان بينهم ما لم يكن بين الوحوش الضواري فلا شيم

يرتعدون بمعناه ولا تقاليد عادلة يعملون بها ، ولا دين يصغون إلى تعاليمه . فالجاهلي عاش بين ناقته وفرسه وشاته يستوحي كل حياته وتقاليده من هذه العناصر ، فلا قائد سليم ، ولا نبي يوحى إليه ولا شريعة يصغي إليها ولا تربية توجهه إلى الخير . أما المسلم فكل شيء متوفر له بغير تعب ولا شقاء وهو حتى اليوم في عصر الكهرباء وانفلاق الذرة يحيا حياة الوحوش في قلبه ونواياه وتصرفاته لم يستفد من الإسلام وهو المسلم بعض ما جاء به الإسلام لمصلحته الخاصة ولم يستفد من الغرب صاحب الأعاجيب إلّا ما كان في الغرب من فجور وسيئات وتهتك أما المعاني السامية التي جاء بها الغرب وعمل فيها في بلاده فالمسلم العربي أجنبي عنها بكل معانيها وفي الجملة العربي هو العربي قبل الإسلام وبعده ، ولا أظن أنه سيوفق في يوم من الأيام ليكون في صفوف الإنسان الذي أراده الله ورسله والإنسان !! .

« ١٠ »

ملوك غسان

يقول ابن خلدون في تاريخه : أول ملك كان للعرب بالشام ـ فيما علمناه ـ للعمالقة . . ثم لبني إرَم بن سام ، ويعرفون بالأرمانيّين . كان بنو إرم يومئذٍ بادية في نواحي الشام والعراق ، وقد ذكروا في التوراة ، وكان لهم مع ملوك الطوائف حروب ، وكان آخر هؤلاء العمالقة مُلْك السميدع بن هوثر ، وهو الذي قتله يوشع بن نون حين تغلب بنو إسرائيل على الشام ، وبقي في عقبه مُلْك في بني الظرب بن حسّان من بني عاملة العماليق وكان آخرهم ملكاً الزّبا بنت عمرو بن السميدع . وكانت قضاعة مجاورين لهم في ديارهم بالجزيرة ، وغلبوا العمالقة .

فلما هلكت الزبّا وانقرض أمر بني الظرب بن حسان ، مَلَكَ أمرَ

العرب تنوخ من بطون قضاعة ، وهم : تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم الله بن الأسود بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . فملوك من تنوخ ثلاثة ملوك ـ فيما ذكر المسعودي ـ النعمان بن عمرو ، ثم ابنه عمرو بن النعمان . . ثم أخوه الحوار بن عمرو . وكانوا مملكين من قبل الروم . ثم تلاشى أمر تنوخ واضمحلّ ، وغلبت عليهم سُلَيْحٌ من بطون قضاعة ، ثم عمرو بن حلوان ، فتنصروا ، وملّكتهم الروم على العرب ، وأقاموا على ذلك مدة . وكان نزولهم ببلاد مؤاب من أرض البلقاء .

قال ابن سعيد : كان لبني سليح دولتان في بني ضجعم وبني العبيد ، فأما بنو ضجعم فملكوا إلى أن جاءهم غسان فسلبوهم ملكهم ، وكان آخرهم زياد بن الهبولة ، سار بمن بقي منهم إلى الحجاز ، فقتله والي الحجاز . وأما بنو العبيد بن الأبرص بن عمرو بن أشجع بن سليح ، فتوارثوا الملك بالحضر الذي آثاره باقية في برية سنجار .

قال المسعودي : سار عمرو مزيقيا حتى إذا كان بالشراة بمكة أقام هنالك بنو نصر بن الأزد . . وعمران الكاهن . . وعدي بن حارثة بن عمرو ، حتى نزلوا بين بلاد الأشعريين وعكّ ـ وعك هو ابن عدنان بن عبد الله بن أدد ـ فنزلوا على ماء يُقال له : غسّان ، بين واديين يقال لهما : زَبيدٌ وزُمعٌ ، فشربوا من ذلك الماء ، فسموا غسّان . وكانت بينهم وبين معدّ حروب إلى أن ظفرت بهم معد ، فأخرجوهم إلى الشراة ـ والشراة : جبل الأزد الذين هم به ، وهم على تخوم الشام ما بينه وبين الجبال مما يلي دمشق وعمان . . .

وكانت غسّان لأوّل نزولها بالشام طالبها ملوك الضجاعم بالأتاوة ، فمانعتهم غسان ، فاقتتلوا ، فكانت الدائرة على غسان ، وأقرّت بالصِغار ، وأدّت الأتاوة ، حتى نشأ جذع بن عمرو ، فأتاه سبطة بن المنذر بن داود يطالبه بالأتاوة ، فقتله جذع ، ثم التقى رجال سليح مع غسّان ، فكانت الغلبة لغسّان ، وتفرّدوا بملك الشام ، وذلك في وقتٍ كانت الحرب دائرة بين الروم وفارس ، فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه الفرس ، فكتب إليهم واستدناهم ، ورئيس غسّان يومئذٍ ثعلبة بن عمرو أخو جذع ، وتعاهدوا على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدّهم بأربعين ألفاً من الروم ، وإن دهمه أمر أمدته غسان بعشرين ألفاً . وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه ، فأوّل مَنْ ملك منهم ثعلبة بن عمرو ، وآخرهم جبلة . وقال المسعودي : أول مَنْ ملك منهم الحرث بن عمرو مزيقيا ، ثم الحرث بن ثعلبة بن جفنة ، وهو ابن مارية ذات القرطين ـ وسميت ذلك : لأنها أهدت الكعبة قرطين كانا لها من أثمن الجواهر وأغلاها ـ ، وآخرهم جبلة .

وقال ابن سعيد : أول مَنْ ملك من غسّان بالشام وأذهب ملك الضجاعم جفنةُ بن مزيقيا . ونقل عن صاحب تواريخ الأمم : لما ملك جفنة بنى مدينة جِلّق ـ وهي دمشق ـ ، واتصل الملك في بنيه إلى أن كان منهم الحارث الأعرج ابن أبي شمر ، وأمه ماريا ذات القرطين . وهو الذي سار إليه المنذر ابن ماء السماء ـ كما قال ابن قتيبة ـ من ملوك الحيرة في مائة ألف ، فبعث إليه الحارث مائة من قبائل العرب ، فيهم لبيد الشاعر ـ وهو غلام ـ فأظهروا أنهم رسل في الصلح ، حتى إذا أحاطوا برواق المنذر فتكوا به وقتلوا جميع مَنْ كان معه في الرواق ،

وركبوا خيولهم ، فمنهم مَنْ نجا ومنهم مَنْ قُتل ، وحملت غسّان على عسكر المنذر ، فهزموهم . ويقال : أنّ غسّان أوشكت على الهزيمة ، فخرجت حليمة بنت الحارث بالعطر على الجنود ، وأخذت ترشهم ، وتحرضهم على قتل المنذر ، فبعث ذلك الحماسة في القلوب ، واندفعت غسّان في القتال حتى تغلبت على المنذر فسمي الحرب يوم حليمة .

ثم توالى الملك في ولد الحارث الأعرج إلى أن ملك منهم جفنة بن المنذر بن الحارث الأعرج ، وهو مُحرق ، لأنه حرق الحيرة دار ملك آل النعمان ، وقيل : سمي ذلك لأنه كان يُعذّب بالحرق بالنار . وكان جوالاً في الآفاق . ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر الذي بنى قصر السويدا ، وقصر حارث عند صيدا وقيل اسم القصر : حارب ـ وهو مذكور في شعر النابغة الذبياني ، في قوله :

لئن كان للقصرين قصر بجِلَّق وقصر بصيداء الذي عند حارب

ولم يكن أبوه ملكاً ، وإنما كان يغزو بالجيش ، ثم ملك جبلة بن النعمان ، وكان منزله بصفين ، وهو صاحب عين أباغ يوم كانت له الهزيمة فيه على المنذر بن المنذر ابن ماء السماء ، وقتل المنذر في ذلك اليوم . ثم اتصل الملك في تسعة منهم بعده ، وكان العاشر أبو كرب الذي رثاه النابغة ، وكان منزله بالجولان من جهة دمشق . ثم ملك الأيهم بن جبلة بن الحارث ، وكان له رأي في الإفساد بين القبائل ، حتى أفنى بعضهم بعضاً ، وكان منزله بتدمر . وملك بعده منهم خمسة فكان السادس جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوكهم .

واستفحل ملك جبلة حتى أدرك الإسلام ، وأسلم عندما فتح المسلمون الشام .

قال ابن سعيد عن صاحب تواريخ الأمم : إن جميع ملوك بني جفنة اثنان وثلاثون ، ومدتهم ستمائة سنة ، ولم يبق لغسان بالشام قائمة . وورث أرضهم بها قبيلة طيء ، وأمراؤهم بنو مرا ، وأما أمراؤهم الآن بنو مهنّا ، وهما معاً لربيعة . وقامت غسان بعد منصرفها من الشام بأرض القسطنطينية حتى انقرض ملك القياصرة ، فتجهزوا إلى جبل شركس ـ وهو ما بين بحر طبرستان وبحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية ـ . وفي هذا الجبل شعوب الترك المتنصِّرة الشركس . . وأركس ، واللاص . . وكسا . . ومعهم أخلاط من الفرس ويونان . والشركس غالبون على جميعهم فانحازت قبائل غسان إلى هذا الجبل عند انقراض القياصرة والروم ، وتحالفوا معهم ، واختلطوا بهم ، ودخلت أنساب بعضهم في بعض ، حتى ليزعم كثير من الشركس أنهم من نسب غسّان . والله أعلم .

ولله حكمة بالغة في خلقه . والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين ، لا انقضاء لملكه ، ولا ربّ غيره .

« ١١ »

الأوس والخزرج

ذكرنا سابقاً أن مدينة يثرب بناها يثرب بن قائد بن عبيد بن مهلاييل بن عوص بن عمليق بن لاوذ بن إرم .

وقال المسعودي : إن الحجاز كان أشجر بلاد الله ، وأكثرها ماء ، فغزا بنو إسرائيل العمالقة من جاسم وتغلبوا عليهم وسكنوا الحجاز ثم تبعتهم يهود خيبر وبنو قريظة . فنزلوا بلاد يثرب ، واتخذوا بها الأموال ، وبنوا القلاع والمنازل في كل موطن ، وملكوا أمر أنفسهم ، وانضافت إليهم قبائل من العرب نزلوا معهم ، واتخذوا البيوت ، وأمرهم راجع إلى ملوك المقدس من عقب سليمان (ع) .

فلما خرج مزيقيا من اليمن ، وملك غسّان بالشام ، ثم هلك وملك ابنه ثعلبة العنقاء ، ثم ملك ابن أخيه جفنة مكانه ، سخط ابنه

حارثة ، فأجمع على الرحلة إلى يثرب ، وأقام بنو جفنة بن عمرو ومَنْ انضاف إليهم بالشام . ونزل حارثة يثرب على يهود خيبر ، وسألهم الحلف والجوار على الأمان والمنعة ، فأعطوه من ذلك ما سأل .

وقال أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني : بنو قريظة وبنو النضير الكاهنان من ولد الكوهن بن هارون (ع) ، كانوا بنواحي يثرب بعد موسى وقبل تفرّق الأزد من اليمن بسيل العرم ، ونزول الأوس والخزرج بيثرب ، وذلك بعد الفُجّار . وكان بالمدينة منهم بنو نعيف . . وبنو سعد . . وبنو الأزرق . . وبنو نظرون . وملك الحجاز منهم الأرقم ، ما بين تيما إلى فدك ، وكان ملوك المدينة لهم بها نخل وزرع . وكان موسى (ع) قد بعث إلى الجبابرة يغزونهم ، وبعث إلى العمالقة جيشاً من بني إسرائيل وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً فأبقوا ابناً لأرقم ضنّوا به على القتل .

فلما رجعوا بعد وفاة موسى (ع) وأخبروا بني إسرائيل بشأنه ، فقالوا هذه معصية لا تدخلوا علينا الشام ، فرجعوا إلى بلاد العمالقة ونزلوا المدينة ، وكان هذا أوّلية سكنى اليهود بيثرب ، وانتشروا في نواحيها ، واتخذوا بها القلاع والأموال والمزارع ، ولبثوا زماناً . وظهر الروم على بني إسرائيل بالشام وقتلوهم وسبوا . فخرج بنو النضير . . وبنو قريظة . . وبنو يهدل . . هاربين إلى الحجاز ، وتبعهم الروم فهلكوا عطشاً في المفازة بين الشام والحجاز .

ونزل بنو النضير مما يلي البهجان . . وبنو قريظة وبنو يهدل على نهر وزّ . وكان ممن سكن المدينة من اليهود حين نزلها الأوس والخزرج بنو الشقمة . . وبنو ثعلبة . . وبنو زرعة . . وبنو قينقاع . .

وبنو يزيد . . وبنو النضير . . وبنو قريظة . . وبنو يهدل . فلما كان سيل العَرِم وخرجت الأزد ، نزلت أزد شنوءة الشام بالسراة ، وخزاعة بطُوى ، ونـزلـت غسّـان بُصْـرى وأرض الشـام ، ونـزلـت أزد عُمـان الطائف ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب . نزلوا في ضرار بعضهم بالضاحية وبعضهم بالقرى مع أهلها ، ولم يكونوا أهل نَعَم وشاءٍ ، لأنّ المدينة ليست بلاد مرعى ، ولا نخل لهم ولا زرع ، والأموال لليهود فلبثوا حيناً .

ثم وفد مالك بن عجلان إلى أبي جبيلة الغسّاني ـ وهو يومئذٍ ملك غسّان ـ فسأله ، فأخبره عن ضيق معاشهم ، فقال : ما بالكم لم تغلبوهم حين غلبنا أهل بلدنا ؟ ووعده أنه يسير إليهم فينصرهم . فرجع مالك ، وأخبرهم أن أبا جبيلة يزورهم ، فأعدوا له نُزُلاً ، فأقبل ونزل بذي حرض ، وبعث إلى الأوس والخزرج بقدومه ، وخشي أن يتحصن منه اليهود في القِلاع ، فاتخذ حائراً ، وبعث إليهم ، فجاؤوا في خواصهم وحشمهم ، وأذن لهم في دخول الحائر ، وأمر جنوده فقتلوهم رجلاً رجلاً إلى أن أتوا عليهم . وقال للأوس والخزرج : إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأُحرّقنّكم ، ورجع إلى الشام ، فأقاموا في عداوة مع اليهود .

ثم أجمع مالك بن العجلان وصنع لهم طعاماً ودعاهم ، فامتنعوا لغـدرة أبـي جبيلـة ، فـاعتـذر لهـم مـالـك عنهـا وأنـه لا يقصـد ذلـك ، فأجابوه ، وجاؤوا إليه ، فغدرهم وقتل منهم سبعة وثمانين من رؤسائهم . وفطن الباقون ، فرجعوا ، وصوّرت اليهود بالحجاز مالك بن العجلان في كنائسهم وبيعهم ، وكانوا يلعنونه كلما دخلوا .

ولما قتلهم مالك ذلوا وخافوا ، وتركوا الفتن على بعضهم البعض كما كانوا يفعلون من قبل . . وكان كل قوم من اليهود لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يستنصرون به ويكونون لهم أحلافاً .

وقال العلامة ابن خلدون : وكان لحارثة بن ثعلبة ولدان أحدهما أوسٌ والآخر خَزْرجٌ ، وأمهما : قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة . فأقاموا كذلك زمناً حتى أثروا وامتنعوا في جانبهم ، وكثر نسلهم وشعوبهم . فكان بنو الأوس كلهم لمالك بن الأوس ، ومن بطونهم : بنو ظفر ، وبنو الأشهل ، وبنو سعد ، وأسلم وواقف بنو امرىء القيس بن مالك . ومن بطون الخزرج : بنو ساعدة . . وبنو النجار .

فلما انتشر بيثرب هذان الحيان من الأوس والخزرج ، خاف اليهود على أنفسهم ، فنقضوا الحلف الذي عقدوه لهم ، وكانت العزة يومئذٍ بيثرب لليهود ، حتى نبغ مالك بن العجلان واتصل بأبي جبيلة ، كما مرّ .

ثم إنه دبّ الخلاف بين الخزرج والأوس ، واتصلت الحروب بينهم ، ومن أشهر الوقائع التي كانت بينهم يوم بُعاث قبل المبعث . قالت عائشة : كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله لرسوله . وذلك لأنه لما كثر القتل بينهم وفقدوا الآمان أرادوا أن يكون لهم رئيس يقضي بينهم بالعدل وينشر الأمن والطمأنينة فكان الإسلام ، وكان رسول الله ، فآمنوا به ونصروه .

« ١٢ »

العقائد الدينية في الجزيرة العربية

١ ـ لمحة عن العقائد الدينية في جنوب الجزيرة

يستفاد من النقوش أن العقائد والحياة الدينية في جنوب الجزيرة كانت متقاربة على اختلاف الأدوار والبيئات . فقد كان القمر هو المعبود الرئيسي مع اختلاف في تسميته وتطور في حالاته ثم تأتي بعده الشمس ثم الزهرة على اختلاف ـ كذلك ـ في تسميتها وكان لكل شعب أو قبيلة إله قومي خاص يعتبرونه حامياً لهم ورابطة تربط بين وحداتهم . وكان لهم غير ذلك آلهة ثانوية أخرى . وكانوا يصنعون

لآلهتهم تماثيل يضعونها في معابدهم ليؤدوا عندها طقوسهم الدينية ويقدموا قرابينهم .

ولقد كانت المعبودات الرئيسية الثلاثة في الدولة المعنية تسمى (ود) و(نكرح) و(عثتر) وكان القمر مذكراً والشمس مؤنثة ويعتبرون أن القمر هو زوج للشمس . .

وكانت الزهرة تنسب إلى المدن والمناطق فيقال : (عثتر يبريق) و(عثتر قبض) . . ولقد عثر على قبر امرأة معينية عليها صورة الميتة ورمز الزهرة في شكل توسلي لإنزال العذاب على من يتجرأ على تغيير الحجر عن موضعه ! .

وكان الشعب المعيني يسمى نفسه أبناء (ود) ويعتبر هذا المعبود إلهه القومي وحاميه والرابطة التي تجمع بين وحداته وفروعه . وقد كان (ود) في أثناء قوة الدولة المعينية وسلطانها الشامل إلهاً رئيسياً لجميع الإمارات والمناطق الخاضعة لها .

وقد كانت أسماء الآلهة الرئيسية عند الحضرموتيين نفسها عند المعينين غير أنهم كان لهم إله قومي حاميهم ورابطتهم يسمونه : (سين) وكانوا يسمون أنفسهم أبناء سين . وقد عثر على نقش حضرموتي سجل فيه صاحبه : (أن نفسه وروحه وأولاده ومقتنياته ونور عينيه وما يفكر به في قلبه هو لسين إله حضرموت . .) وقد وجدت آثار معبد ضخم لسين في خرائب مدينة حضرموتية اسمها : (مذب) وبعض النقوش يفيد أن اسم سين كان يطلق على القمر ويعتبر المعبود الرئيسي الأول في فترة من الفترات .

وقد قرىء في نقوش حضرموتية أسماء إلهين آخرين وهما : (ذات حشو) و(ذات حميم) وقرىء في نقش حضرموتي اسم : (حول) مع أسماء سين وعثتر وشمس باسمها العربي بديلاً عن اسم نكرح المعيني .

وقد سمى القتبانيون القمر (ودا) كما فعل المعينيون والحضرموتيون وسموا الشمس : (عثيرة) وكان لهم معبود قومي اسمه : (عم) ويعتبرونه حاميهم ورابطة عقدهم ويسمون أنفسهم : أولاد (عم) وقرىء في نقش لامرأة أوسانية جملة : (معبد نعمان) . والسبئيون كانوا يسمون معبودهم القومي باسم : (المقه) ولما صار لهم السلطان الشامل صار المقه معبوداً عاماً للدولة مع بقائه معبودهم القومي وكان اسم المقه يرمز إلى القمر .

ويظن الأشريون أن جملة : (ذات حميم) وصف للشمس وأن السبئيين يصفونها كذلك بأوصاف : (ذات بعدن وذات حضرن وذات برأن) . وهكذا يكون ثالوث القمر والشمس والزهرة استمر في عهد الدولة السبئية التي صارت شاملة السلطان بعدالمعينية مع تبديل للشمس والقمر . . . وهناك نقوش عديدة ذكر فيها خبر تقديم أوثان من ذهب أو فضة أو بدون ذكر معدنها لمعابد الآلهة وفاء بنذر أو علامة لشكر . . وإن تماثيل الذهب والفضة هي نماذج مصغرة لتماثيل مادية كبيرة للمعبودات هي التي كان يؤدى عندها الطقوس الدينية وتقرب القرابين ويوجه إليها الدعاء والتضرعات وتفيد النقوش ، أنه كان في المدينة الواحدة معابد متعددة للآلهة المتعددة وأن الملوك والأمراء والأغنياء كانوا يهتمون كثيراً لإنشاء المعابد وترميمها وتجديدها

وتزيينها . . .

وكان للمعبودات حيز عظيم في أذهان اليمنيين بحيث يذكرونها ويتقربون في كل حادث ومناسبة وعمل . . ويظهر أنه لم يكن عندهم فكرة عن أخروية وثواب وعقاب أخرويين . . إنهم كانوا يذكرون المعبودات في كل عمل وكل مناسبة لشؤونهم المختلفة في الحياة الدنيا أي لضمان مطالبهم وقضاء حوائجهم وتحقيق آمالهم ودفع الشر والأذى عنهم وجلب الخير والنفع لأنفسهم ويلاحظ هذا المعنى في مختلف النقوش المعينية والحضرموتية والقتبانية والسبئية على السواء وفي مختلف الحالات والأدوار . وفي العرض الآتي دليل على ما ندعيه من أن علاقتهم بالآلهة هي علاقة دنيوية وليس فيها للآخرة من قريب أو بعيد : ـ

١ ـ نقش حضرموتي قديم دوّنه معدي كرب أحد ملوك حضرموت ذكر فيه وقفه حصناً اسمه : (خرف) للإله (عثتر) تقرباً له وللإلهين (ود) و(نكرح) .

٢ ـ نقش معيني دوّنه جماعة من آل دبروا أعلنوا فيه جعلهم مبانيهم في حماية (عثتر) .

٣ ـ نقش دوّنه زعيمان معينان شكروا فيه (عثتر) وبقية آلهة معين ود ونكرح لأنها نجت قافلة لهم من الغزاة سلبت أموالهم وحفظت أرواحهم حتى وصلوا سالمين إلى أهلهم . وأجروا في المعبد زينة علامة شكر وابتهاج !! .

٤ ـ نقش دوّنه (شهر معلل) أحد ملوك قتبان يذكر فيه تقرّبه من

الإله (أنبى)

٥ ـ نقش قتباني دوّنه شخص اسمه : (شرح عت) ذكر فيه أن الملك كلفه بإنشاء برج وأورد أسماء الآلهة التي طلب التبرك منهم .

٦ ـ نقوش حضرموتية عديدة يذكر فيها أصحابها خبر تقديمهم نذوراً للإله (سين) ليمنحهم العمر الطويل والخير والبركة في الأرزاق .

٧ ـ نقش دوّنه رجلان ذكرا فيه أنهما قدما إلى معبد الإله (سين) سبعة تماثيل من الذهب حسب أمر سيدهما !! .

٨ ـ نقش سبئي دوّنه رجل لمناسبة تقديمه قرابين إلى الإله عثتر شكراً له لسقيه أراضي قبيلته سقيا مرويا بالخريف والربيع !! .

٩ ـ نقش تضرع كاتبه المجهول للآلهة بأن تمن عليه بالصحة وأن تباركه في نفسه وأمواله !! .

وقد كان للكهنة وأوقاف المعابد وضرائبها مكان هام مميز في المجتمع اليمني وكان الكهان نتيجة لذلك كأنهم دولة ضمن دولة بما كان يجبى إليهم من ضرائب وموارد وبما كانوا يسهمون فيه من أعمال ومشاريع عامة واقتصادية . .

وفكرة المكربية تمثل الكهانة في ذروتها العليا حيث كان الملوك المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحضرموتيون في البدء يتلقبون بلقب مكرب الذي كان فيه معنى الرئاسة الدينية والوسيلة التقريبية بين الآلهة والناس وكثير منهم احتفظوا بلقب المكرب مع تلقبهم بلقب

الملك وكان غير الملوك من الأمراء والحكام يمارسون الزعامة الكهنوتية لهذا الاعتبار . . .

ومن الجدير بالذكر أن القمر والشمس والزهرة كانت معبودات رئيسية في العراق والشام ومصر وسائر أنحاء الجزيرة في مختلف أدوار التاريخ القديم وكان الشعب العربي في العراق يسمي القمر : (سين) والشمس : (شمشا) والزهرة : (عشتار) وكان الشعب العربي في الشام يسمي الزهرة عشتروت .

وللقمر خاصة أثر عظيم في حياة الجزيرة العربية الشديدة الحرارة حيث يكون لليل وللقمر الذي ينير ظلمائه الأثر الأكبر في النفوس ولعلّ هذا هو سرّ جعل القمر الأكبر المعبود الأكبر .

٢ ـ أديان العرب :

كانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل ، والانتقال إلى البلدان والانتجاعات ، فكانت قريش ، وعامة ولد معدّ بن عدنان ، على بعض دين إبراهيم ، يحجون البيت . ويقرون الضيف ، ويعظّمون الأشهر الحُرُم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم ، فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت .

وكان آخر من قام بولاية البيت الحرام من ولد معدّ : ثعلبة بن إياد بن نزار بن معدّ ، فلما خرجت إياد وليت خزاعة حجابة البيت ، فغيّروا ما كان عليه الأمر في المناسك .

وخرج عمرو بن لُحَيّ إلى أرض الشأم ، وبها قوم من العمالقة يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون ؟

قالوا : هذه أصنام نعبدها ، نستنصرها ، فنُنصر ، ونستسقي بها ، فنُسقى . فقال : ألا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب ، عند بيت الله الذي تفد إليه العرب ؟ فأعطوه صنماً يقال له : هُبَل ، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة ، فكان أول صنم وضع بمكة ، ثم وضعوا به إساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت ، فكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف ، فقبّله ، وختم به ، ونصبوا على الصفا صنماً يقال له : مجاور الريح ، وعلى المروة صنماً يقال له : مطعم الطير ، فكانت العرب إذا حجّت البيت فرأت تلك الأصنام. سألت قريشاً وخزاعة ، فيقولون : نعبدها لتُقربنا إلى الله زُلْفى . فلما رأت العرب ذلك اتخذت أصناماً ، فجعلت كل قبيلة لها صنماً ، يصلّون له تقرّباً إلى الله ـ فيما يقولون ـ فكان لكلب بن وبرة وأحياء قضاعة (ودّ) منصوباً بدومة الجندل ، بجُرش ، وكان لحمير وهمدان (نسر) منصوباً بصنعاء وكان لكنانة (سواع) ، وكان لغطفان (العُزّى) ، وكان لهند وبجيلة وخثعم (ذو الخَلَصة) وكان لطيء (الفُلس) منصوباً بالحِبْس ، وكان لربيعة وإياد (ذو الكعبات) بسنداد من أرض العراق ، وكان لثقيف (اللات) منصوباً بالطائف ، وكان للأوس والخزرج (مناة) منصوباً بفَدَك مما يلي ساحل البحر ، وكان لدوس (ذو الكفين) ولبني بكر بن كنانة (سعد) وكان لقوم من عذرة (شمس) وكان للأزد (رئام) . فكانت العرب إذا أرادت حج البيت الحرام وقفت كل قبيلة عند صنمها ، وصلّوا عنده ، ثم تلبّوا حتى قدموا مكة ، وكانت تلبياتهم مختلفة .

وكانت تلبية قريش : لبّيك اللهمّ لبّيك ، لبّيك لا شريك لك ،

تملكه وما ملك .

وتلبية كنانة : لبّيك اللهمّ لبّيك ! اليوم يوم التعريف . . يوم الدعاء والوقوف .

وتلبية بني أسد : لبّيك اللهمّ لبّيك ! يا رب أقبلت بنو أسد . . أهل التواني والوفاء والجلد إليك . .

وكانت تلبية بني تميم : لبّيك اللهمّ لبّيك ! لبّيك لبّيك عن تميم قد تراها ، قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها ، وأخلصت لربّها دعاءها .

وتلبية قيس عيلان : لبّيك اللهمّ لبّيك ! لبّيك أنت الرحمن ، أتتك قيس عيلان راجلها والركبان .

وكانت تلبية ثقيف : لبّيك اللهمّ ! إنّ ثقيفاً قد أتوك وأخلفوا المال ، وقد رجوك .

وكانت تلبية هذيل : لبّيك عن هذيل . . قد أدلجوا بليل . . في إبل وخيل .

وتلبية ربيعة : لبّيك ربنا لبّيك لبّيك ! إنّا قصدنا إليك ، وبعضهم يقول : لبّيك عن ربيعة ، سامعة لربّها مطيعة .

وكانت حمير وهمدان يقولون : لبّيك عن حمير وهمدان ، والحليفين من حاشدٍ وألْهان .

وتلبية الأزد : لبّيك رب الأرباب . . تعلم فَصْل الخطاب . . لملك كل مثاب .

وتلبية مذحج : لبّيك ربّ الشعرى ، وربّ اللات والعزى .

وتلبية كندة وحضرموت : لبيك لا شريك لك ! تملكه . . أو تهلكه . . أنت حكيم فاتركه .

وكانت تلبية غسّان : لبّيك ربّ غسّان راجلها والفرسان .

وتلبية بجيلة : لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة .

وتلبية قضاعة : لبيك عن قضاعة . . لربها دفّاعة . . سمعاً له وطاعة .

وكانت تلبية جذام : لبيك عن جذام . . ذي النهى والأحلام .

وتلبية علكّ والأشعريين : نحجّ للرحمن بيتاً عجبا . . مستتراً . . مضبّبا . . محجّبا .

وكانت العرب في أديانهم على صنفين : الحُمْس . . والحِلّة . فأما الحمس : فقريش كلها ، وكانوا يشدّدون على أنفسهم في دينهم ، فإذا نسكوا لم يسلأوا سمناً ، ولم يدّخروا لبناً ، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه ، ولم يحزّوا شَعراً . . ولا ظفراً ، ولم يدّهنوا ، ولم يمسوا النساء ولا الطيب ، ولم يأكلوا لحماً ، ولم يلبسوا في حجّهم وبراً ولا صوفاً ولا شعراً ، ويلبسون جديداً ، ويطوفون بالبيت في نعالهم ، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له ، ولا يدخلون البيوت من أبوابها ، ولا يخرجون إلى عرفات ، ويلزمون مزدلفة ، ويسكنون في حال نسكهم قباب الأدم .

وكان الحِلّة : خزاعة . . وتميم . . وضبة . . ومزينة . .

والـربـاب . . وعُكْـل . . وثـور . . وقيـس عيـلان . . وعـامـر بـن صعصعـة . . وربيعـة بـن نـزار . . وقضـاعـة . . وحضـرمـوت . . وعكّ . . وقبائل من الأزد . لا يحرمون الصيد في النسك ، ويلبسون كل الثياب ، ويسلأون السمن ، ولا يدخلون من باب دار ، ولا يؤويهم ماداموا محرمين ، وكانوا يدّهنون ويتطيبون ، ويأكلون اللحم ، فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم ، نزعوا ثيابهم ، فإن قدروا على أن يلبسوا ثياب الحمس ، فعلوا وإلاّ طافوا بالبيت عراة ، وكانوا لا يشترون في حجهم ، ولا يبيعون . فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما .

ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود ، ودخل آخرون في النصرانية ، وتزندق منهم قوم ، فقالوا بالثنوية . فأما مَنْ تهوّد منهم فاليمن بأسرها ، كان تبع حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن ، فأبطل الأوثان ، وتهوّد مَنْ باليمن ، وتهوّد قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير ، وتهوّد قوم من بني الحارث بن كعب ، وقوم من غسان ، وقوم من جذام .

وأما من تنصّر من أحياء العرب : فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، منهم ورقة بن نوفل بن أسد ، ومن بني تميم بنو امرىء القيس بن زيد مناة ، ومن ربيعة بنو تغلب ، ومن اليمن طيء . . ومذحج ، وبهراء . . وسليح . . وتنوخ . . وغسّان . . ولخم .

وتزندق حجر بن عمرو الكندي .

٣ ـ الأخلاق العامة في المجتمع الجاهلي العربي :

وجاء في كتاب سيد المرسلين لمؤلفه الأستاذ المحقق الشيخ جعفر السبحاني تصوير دقيق لملامح المجتمع الجاهلي العربي في منظور القرآن . وبعض من ملامح الأخلاق العامة في المجتمع الجاهلي ، نورده لأهميته في سياق التسلسل التاريخي قبل البعثة النبوية .

إن القرآن يكشف إجمالاً عن أنَّ النبي (ص) بُعِثَ إلى قوم لم يبعث إليها أحد قبله إذ يقول : ﴿ وَلَكِنْ رَحمةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذير مِنْ قَبْلكَ لَعلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[١] .

ويقول في آية أُخرى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه بَلْ هُوَ الحقُّ مِنْ رَبِّك لِتُنذرَ قوماً ما أتاهُمْ مِنْ نَذير مِنْ قبلِكَ لَعلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[٢] .

ومن المعلوم أن المقصود في هاتين الآيتين ونظائرهما هم قريش والقبائل القريبة إليها .

على أن أشمل وصف قرآنيّ لأوضاع المجتمع العربي الجاهلي وأحواله هو قول الله تعالى : ﴿ وَٱعتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَميعاً ولاَ تَفرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أعداء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنعْمَته إخواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفَرة مِنَ النّار فَأَنقذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٣] .

فإنَّ هذه الآية تصوّرُ حياة العرب تصويراً مرعباً ، إذ تُصوِّرُهُمْ

---

(١) القصص : ٤٦ .
(٢) السجدة : ٣ .
(٣) آل عمران : ١٠٣ .

أولاً وكأنهم قد سقطوا في قعر بئر الجاهلية ، والضلال والشقاء فلا ينقذهم شيء من قعر التردي والسقوط إلاّ التمسُّك بحبل الله ، حبل الإيمان والقرآن .

وتصوِّرُهُمْ ثانياً وكأنهم على شفير جهنم يوشكون أن يسقطوا فيه ويهووا في نيرانه ، وليست تلك النار إلاّ نيران العداوات والحروب التي لو لم يقض عليها الإسلامُ بتعاليمه لأحرقت حياة العرب جميعاً .

هذه هي صورةٌ سريعةٌ عما كان عليه العرب في الجاهلية من جهل وسقوط .

وأمّا تفصيل ذلك فيمكن الوقوف عليه بمراجعة الآيات الأُخرى التي تعرضت لذكر عادات العرب وأخلاقهم ، وأفعالهم وتقاليدهم ، بصورة مفصلة ، وها نحن نشير هنا إلى تلكم العادات والأخلاق الفاسدة على ضوء تلك الآيات على نحو الاختصار تاركين التوسع في ذلك إلى مجال آخر .

لقد اتصف المجتمعُ العربيُ الجاهلي قبل الإسلام وشاعت فيه أخلاق وعادات من أبرزها ما يلي :

١ ـ الشرك في العبادة :

صحيح أن العرب في الجاهلية كانت ـ كما يكشف القرآن ذلك لنا ـ موحّدة في جملة من الأمور والمجالات كالخالقية والتدبير والذات[1] إلاّ أنهم كانوا ـ في الأكثر ـ مشركين في العبادة ، بل قد

(١) نعم يُستفاد من آيةٍ واحدةٍ أنه كان هناك اتجاهٌ نادرٌ بين العرب في الجاهلية ينسب الظواهر الطبيعية إلى الطبيعة والدهر يقول الله تعالى : ﴿ وَقالُوا ما هي=

ذَهبُوا في هذا السبيل الباطل إلى أحطِّ المستويات في إتخاذ المعبودات والوثنية .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وَجَعلُوا لله شُركاء الجنَّ وَخَلَقهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِيْنَ وَبَنَاتٍ بِغَيْر عِلْمٍ سُبْحانَه وَتَعالى عَمّا يَصِفُون ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعزّى * وَمَنَاةَ الثالِثَةَ الأُخْرى ﴾[2] .

وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى ما كانَ يعبُدُه الجاهِليُّون مِن أوثان وأصنام ومبلغ ما وصلوا إليه من انحطاط ، وإسفاف وانحراف في هذا المجال .

٢ ـ إنكارُ المعاد :

كان المشركون والجاهليون يرفُضُون الاعتراف بالمعاد الذي يعني عودة الإنسان إلى الحياة . في عالم آخر للحساب والجزاء ، ويصفون من يخبر عن ذلك اليوم بالجنون أو الكذب على الله !! .

يقول تعالى : ﴿ وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجلٍ يُنبّئكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمزَّق إنَّكُمْ لفي خَلق جَديد * وافْترى عَلى الله كَذِباً أَمْ به جِنَّةٌ بَلِ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَة في العَذابِ وَالضَّلالِ البَعيْد ﴾[3] .

= إلا حَياتُنا الدُّنيا نَموتُ وَنَحيا وَما يُهلِكُنا إلاّ الدّهْرُ وما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية : ٢٤) .

(١) الأنعام : ١٠٠ .

(٢) النجم : ١٩ و٢٠ .

(٣) سبأ : ٧ و٨ .

٣ ـ هيمنة الخرافات :

لقد كانت حياة العرب الجاهلية مليئة بالخرافات التي كان منها تحريمهم الأكل من أنعام أربعة ذكرها القرآن منددا بهذه البدعة إذ قال : ﴿ ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحيرة ولا سائبة وَلا وَصيْلَةٍ وَلا حام ولكنَّ الَّذينَ كَفَرُوا يَفْتَرونَ عَلى الله الكذبَ وأكْثَرُهُمْ لا يَعقِلونَ ﴾[1] .

أمّا (البحيرة) بوزن فعِيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق ، فهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها أُنثى ـ وقيل ذكر ـ بحروا أُذنها وشقوها ليكون ذلك علامة وتركوها ترعى ، ولا يستعملها أحد في شيء .

وأمّا (السائبة) على وزن فاعلة بمعناها أو بمعنى مفعولة فهي الناقة إذا نتجت اثني عشر بطناً ـ وقيل عشرة ـ فهي تُهمَل ولا تُركب . ولا تمنع عن ماء ، ولا يشرب لبنها إلّا ضيف .

وأمّا (الوصيلة) بوزن فعيلة بمعنى فاعلة أو بمعنى مفعولة فهي الشاة تنتج سبعة أبطن أو تنتج عناقين عناقين .

وأمّا (الحامي) بوزن فاعل من الحمى بمعنى المنع فهو الفّحل من الإبل الذي يستخدم للقاح الأُناث ، فإذا وُلدَ من ظهره عشرة أبطن قالوا ؛ حُمِي ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يُمنع من ماء ومرعى[2] .

والظاهر أن هذا المذهب تجاه هذه الأنواع من الأنعام كان بدافع

(١) المائدة : ١٠٣ .

(٢) راجع مجمع البيان : ج ٣ ص ٢٥٢ و٢٥٣ في تفسير الآية .

الاحترام والشكر لما وهب أصحابها من النعم والبركات ، غير أن هذا العمل ـ كان في حقيقته ـ نوعاً من الإيذاء والإضرار بهذه الحيوانات ، لأنهم كانوا يُهملونها ويحرمونها من العناية اللازمة فكانت تشقى بقية حياتها ، وتقاسي من الحرمان ، مضافاً إلى ما كان يصيبُها من التلف والضياع ، وما يلحق ثروتهم والنعم التي وهبها الله لهم من هذا الطريق من الضرر والخسارة .

والأسوأ من كل ذلك أنهم ـ كما يُستفاد من ذيل الآية ـ كانوا ينسبون هذه المبتدعات المنكرات وهذا المنع والحظر إلى الله سبحانه وتعالى ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَلكِنّ الّذيْنَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلى الله الكذبَ ﴾ وقد أعلمَ الله في مطلع الآية أنه لم يحرّم مِن هذه الأشياء شيئاً ، وأنهم ليكذبون على الله بادّعائهم أن هذه الأشياء من فعل الله أو أمره .

وقد أشار القرآن إلى هذه الخرافات التي كانت تُكبّل عقول الناس في ذلك المجتمع إذ يقول : ﴿ وَيضَعُ عَنْهُمْ إصرَهُمْ والأغلالَ الّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] .

٤ ـ الفساد الأخلاقي :

كان المجتمع الجاهلي العربي يعاني من فساد ذريع في الأخلاق وقد أشار القرآن الكريم إلى اثنين من أبرز وسائل الفساد ومظاهره هما : القمار (الذي كانوا يسمّونه بالميسر وإنما اشتق من اليسر لأنه أخذ مال الرجل بيُسر وسهولة من غير كدٍّ ولا تعب) والخمر .

---

(١) الأعراف : ١٥٧ وراجع المحبر ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .

وقد بلغ شغفهم بالخمر أنهم أعرضوا عن قبول الإسلام واعتنَاقه لأنه يحرّم تناول الخمر وشربه ، كما نقرأ ذلك في قصة الأعشي عمّا قريب .

يقول القرآنُ في هذا الصعيد : ﴿ **يَسأَلونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسر قُلْ فيها إِثمٌ كبيرٌ وَمَنافعُ لِلنّاس وَإِثمُهما أكبرُ مِن نَفْعِهما** ﴾[1] .

وقد استطاع القرآن الكريم عبر مراحل أربع أن يستأصل هذه العادة البغيضة التي كانت قد تجذرت بشكل عجيب في نفوس ذلك القوم ، حتى أصبحت السمة البارزة لحياتهم وأصبح التغنّي بالخمرة ، ووصفها الطابع الغالب لآدابهم ، واللون البارز الذي يصبغ قصائدهم وأشعارهم .

على أن الفساد الأخلاقي في المجتمع الجاهلي العربيّ قبل الإسلام لم يكن ليقتصر على معاقرة الخمر ، ومزاولة الميسر بل تعدى إلى ألوان أُخرى ذكرها القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً ، حيث عدّ منها الزنا ، واللواط ، والقذف ، وإكراه الفتيات على البغاء وما شاكل ذلك[2] .

٥ ـ وأد البنات وإقبارهن :

ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى عادة جاهلية سيئة أخرى كانت رائجة بين قبائل العرب الجاهلية قاطبة وهي دفن البنت حيةً .

---

(١) البقرة : ٢١٩ .

(٢) راجع للوقوف على ذلك سورة النساء : ١٥ و١٦ . وسورة النور : ٢ و٣ وغيرها . وراجع المحبر : ص ٣٤٠ .

فقد شجب القرآن الكريم هذه العادة البغيضة وهذا العمل اللاإنساني ونهى عنه بشدة في أربعة مواضع ، إذ قال تعالى : ﴿ وَإِذا الموؤدةُ سُئلتْ * بأيّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أولادَكُمْ خَشيَةَ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرزقُهُمْ وَإيّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْئاً كبيراً ﴾[2] .

وقد أتى جدُ « الفرزدق » « صعصعة بن ناجية بن عقال » رسول الله (ص) وعدّ من أعماله الصالحة في الجاهلية أنه فدى مائتين وثمانين موؤدة في الجاهلية ، وأنقذهُنَّ من الموت المحتَّم باشترائهنَّ من آبائهن بأمواله .

وقد افتخر « الفرزدق » بإحياء جدِّه للموؤدات في كثير من شعره إذ قال :

ومنّا الذي منَع الوائدات   وأحيا الوئيد فلم يُوأد[3]

٦ ـ تصوراتهم الخرافية حول الملائكة :

وممّا أشار إليه القرآن الكريم تصورات العرب الجاهلية حول الملائكة ، فقد كانوا يعتقدون أن الملائكة من الإناث وأنهن بنات الله ، إذ يقول تعالى : ﴿ فَاستَفْتِهِمْ ألِرَبِّكَ البَناتُ وَلَهُمْ البَنُونُ * أمْ خَلَقْنا المَلائكَةَ إناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ * ألا إنَّهُمْ مِنْ إفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَد الله وَإنَّهُمْ لكاذِبُونَ * اصطفى البَناتِ عَلى البَنِينَ * ما لَكُمْ كَيْفَ

(١) التكوير : ٨ و٩ .
(٢) الإسراء : ٣١ .
(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : ج ٣ ص ٤٥ و٤٦ .

تَحْكُمُونَ ﴾[1] .

كيفية الانتفاع من الأنعام :

إذا كانت العربُ الجاهلية تمتنع من تناول لحوم الأنعام الأربعة المذكورة آنفاً وتجتنب عن استعمال ألبانها وشعورها وأصوافها إلاّ أنها كانت في المقابل تتناول الدم ، والميتة والخنزير ، وتأكل من الحيوانات والأنعام التي تقتلها بصورة قاسية ، وبالتعذيب والأذى ، وربما كانت تعتبر ذلك نوعاً من العبادة ، ويُعرف ذلك من الآية التالية التي نزلت تنهى بشدة عن أكل هذه اللحوم ، وتحرّم تناولها ، إذ يقول سبحانه : ﴿ حُرِّمتْ عَلَيْكُمُ الميْتَة والدَّمُ وَلَحمُ الْخِنْزيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ وَالمُنْخَنقةُ وَالموقوذةُ والمتردِّيَةُ والنَّطيحةُ وَما أَكَلَ السَّبعُ إلاّ ما ذَكَّيْتُمْ وما ذُبِحَ عَلى النُّصُب وأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾[2] .

فقد حرّم الله في هذه الآية أكل :

١ ـ الميتة .

٢ ـ الدم .

٣ ـ لحم الخنزير .

٤ ـ ما ذكر اسم غير الله عليه .

٥ ـ التي تموت خنقاً ، وهي المنخنقة .

٦ ـ التي تضرب حتى تموت ، وهي الموقوذة .

٧ ـ التي تقع من مكان عالٍ فتموت وهي المتردية .

---

(١) الصافّات : ١٤٩ ـ ١٥٤.

(٢) المائدة : ٣ .

٨ ـ التي تموت نطحاً من حيوان آخر وهي النطيحة .

٩ ـ ما افترسه سبع إلا إذا ذُكي قبل موته .

١٠ ـ وما ذُبِح أمام الأصنام .

٨ ـ الاستقسام بالأزلام :

فقد كان تقسيم لحم الذبيحة يتم عن طريق الازلام ، والأزلام جمع (زلم) بوزن (شَرَفْ) وهي عيدان وسهام تستخدم في ما يشبه القرعة لتقسيم لحم الذبيحة .

فقد كان يشتري عشرة أنفار بعيراً ثم يذبحونه ، ثم يكتبون على سبعة منها أسهماً مختلفة من الواحد إلى السبعة ولا يكتبون على ثلاثة منها شيئاً ، ثم يجعلونها في كيس ثم يستخرجونها واحدة بعد أُخرى ، كلٌّ واحدة باسم أحدهم فيأخذ كل واحد منهم من الذبيحة ما خرج له من السهم ، وهكذا يقتسمون الذبيحة بينهم[1] ، فنهاهم الله عن ذلك بقوله : ﴿ وأن تَستَقْسِموا بِالأَزلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ لأنّه ضربٌ من القمار الذي ينطوي على مفاسد الميسر والقمار .

٩ ـ النسيء :

كان العرب الجاهليون يعتقدون حرمة الأشهر الحرم (وهي أربعة المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة) فكانوا يتحرجون فيها من القتال ، وجرت عادة العرب على هذا من زمن إبراهيم واسماعيل (ع) .

---

(١) راجع للوقوف على تفصيل هذه الطريقة بلوغ الأرب : ج ٣ ص ٦٢ و٦٣ ، والمحبر : ص ٣٣٢ ـ ٣٣٥ .

إلاّ أن سَدَنة الكعبة أو رؤساء العرب كانوا يعمَدُون أحياناً ، ولقاء مبالغَ يأخذُونها ، أو جرياً مع أهوائهم ، إلى تأخير الأشهر الحُرمَ ، وهو الأمر الذي عبّر عنه القرآن الكريم بالنسيء ثمّ نهى عنه وعدّهُ كفراً إذ قال : ﴿ **إنما النّسيء زيادةٌ في الكُفْر يُضَلُّ به الّذين كَفرُوا يُحِلونَهُ عامّاً ويحرِّمُونهُ عاماً ليُواطئوا عدَّةَ ما حَرَّمَ الله فيحلّوا ما حَرَّمَ الله زيِّنَ لهمُ سوء أعْمالِهمْ والله لا يَهْدي القومَ الكافِرينَ** ﴾[1] .

وقد ذكرت كُتُب التاريخ والسير كيفية النسيء وتأخير الأشهر الحرم ، الذي كان يتم بصور مختلفة منها : أن جماعة ما لو كانت ترغب في استمرار الغارة والقتال ولم تطق تأخير النضال مدة الأشهر الحرم كانت تطلب من سدنة الكعبة ، لقاء ما تقدمه لهم من هدايا وأموال ، تجويز الغارة والقتال في شهر محرم ، وتحرم القتال في شهر صفر بدله ليتم عدد الأشهر الحرم (وهي أربعة) . وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ **ليُواطِئوا عدّة ما حرَّمَ الله** ﴾ وكانوا إذا أحلُّوا القتالَ والغارة في المحرم من سنة حَرَّمُوه في المحرم مِنَ السَنة التالية ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ **يُحلّونَهُ عاماً ويُحرِّمُونه عاماً** ﴾ .

١٠ ـ الربـــا :

وممّا يشير إليه القرآنُ الكريمُ من المفاسد الشائعة ، والأعمال المنكرة في المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام : « الربا » الذي كان يشكل العمود الفقري في اقتصاد ذلك المجتمع .

(١) التوبة : ٣٧ .

وقد حاربَ القرآنُ الكريمُ هذه العادة المقيتة ، وهذا الفسادَ الاقتصادي حرباً شعواء ، إذ قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذينَ آمنُوا اتّقوا الله وَذَرُوا ما بقيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ * فإنْ لَم تَفْعَلُوا فأذَنُوا بِحَربٍ مِنَ الله وَرَسُولِه وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أموالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تظْلَمُونَ ﴾[1] .

والعجيب أنهم كانُوا يُبّررونَ هذا العمل اللاإنساني بقولهم : ﴿ إنّما البيعُ مِثلُ الرِّبا ﴾[2] فإذا كان البيعُ حلالاً وهو أخذ وعطاء فليكن الرّبا كذلك حلالاً ، فإنه أخذٌ وعطاء أيضاً ، مع أن « الرّبا » من أبشع صور الاستغلال ، وقد ردَّ سبحانه على هذه المقالة بقوله تعالى : ﴿ وأَحلَّ الله البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا ﴾[3] ففي البيع والشراء يتساوى الطرفان في تحمل الضرر المحتمل ، بينما لا يتضرر المرابي في النظام الربوي أبداً وإنّما يلحق الضرر بمعطي الربا دائماً ، ولهذا تنمو المؤسسات الربوية ، ويعظم رصيدُها ، وثروتها يوماً بعد يوم فيما يزداد الطرفُ الآخر بؤساً وفقراً ، ولا يحصل من جهوده المضنية إلاّ على ما يسدُّ جوعته ، ويقيم أوده ، لا أكثر ، كلُّ ذلك نتيجة لهذا الأسلوب الاقتصادي غير العادل .

صورٌ من الوضع الجاهلي :

ما قدمناه كان أبرز المفاسد الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية

---

(١) البقرة : ٢٧٨ و٢٧٩ .
(٢) البقرة : ٢١/٥ .
(٣) البقرة : ٢٧٥ .

والسياسية التي أشار إليها القرآن الكريمُ ، وأما التاريخ فمليء بالصور والقصص التي تحكي عن تردي حالة العرب الجاهلية وسقوطها الفظيع في قعر الفساد في جميع المناحي والجهات .

وإليك في ما يلي نماذج وصور معدودة تكفي للوقوف على الحالة العامة في ذلك المجتمع نقتبسها لك من أصح المصادر وأوثقها :

وها نحن نقدم قصة « أسعد بن زرارة » التي تسلط الضوء على ما كان عليه الوضع الجاهلي في أكثر مناطق الحجاز ، فقد قدم « أسعد بن زرارة » و« ذكوان بن عبد قيس » ـ وهما من الأوس وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلاً ، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار ، وكان آخر حرب بينهم « يوم بُعاث » وقد انتصر فيها الأوسُ على الخزرج ـ مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس ، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة ، فنزل عليه فقال : إنه كان بيننا وبين قومنا حربٌ وقد جئناك نطلب الحلف عليهم ، فقال له عتبة : إن لَنا شغلاً لا نتفرّغ لشيء . قال سعد : وما شغلكم وأنتمْ في حرمكم وأمنكم ؟ قال له عتبة : خرج فينا رجلٌ يدعي أنّه رسول الله سفّه أحلامنا ، وسبّ آلهتنا وأفسدَ شُبّاننا ، وفرّق جماعَتَنا ، فقال له أسعد : مَنْ هو منكم ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً ، وأعظمنا بيتاً .

وكان أسعد وذكوان ، وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم : النضير وقريظة وقينقاع ، أن هذا أوان نبيّ يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنكم به يا معشر العرب ، فلمّا

سمعَ ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمعَ من اليهود ، قال : فأينَ هو ؟ قال : جالس في الحجر ، وإنّهم لا يخرجون من شعبهم إلاّ في الموسم ، فلا تسمع منه ولا تكلمه فإنه ساحر يسحرك بكلامه ، وكان هذا في وقت محاصَرة بني هاشم في شعب أبي طالب ، فقال له « أسعد » : فكيف أصنعُ وأنا معتمرٌ لا بدَّ لي أن أطوف بالبيت ؟ قال : ضعْ في أُذنيكَ القطنَ ، فدخل « أسعدُ » المسجد وقد حشا أُذُنيه بالقطن ، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم ، فنظر إليه نظرة فجازه ، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه : ما أجد أجهلَ مني ؟ أيكونُ مثل هذا الحديث بمكة فلا أتعرّفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم ، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به ، وقال لرسول الله : أنعِمْ صباحاً ، فرفع رسولُ الله (ص) رأسه إليه وقال : قد أبدَلَنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة : السلام عليكم ، قال له أسعد : إنّ عهدَكَ بهذا لقريب ، إلى ما تدعُو يا محمَّد ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وإنّي رسولُ الله ، وأدْعُوكُمْ إلى : ﴿ أَلاّ تشركوا به شَيْئاً وَبِالوالِديَن إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرزُقكُم وإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبوا الفَواحِشَ ما ظَهرَ منها وما بطَنَ وَلا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّم الله إلاّ بالحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِه لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقرَبُوا مالَ اليتيم إلاّ بالّتي هِي أَحسنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكيلَ وَالْميزان بالقِسْطِ لا نُكلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها وإِذا قلتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قربى وَبعَهْدِ الله أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِه لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

(١) الأنعام : ١٥١ و١٥٢ .

فلما سمع « أسعد » هذا قال له : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنك رسولُ الله ، يا رسول الله بأبي أنت وأمي . . .[1] .

إن الإمعان في مفاد هاتين الآيتين يغنينا عن دراسة شاملة وواسعة لأوضاع العرب الجاهلية لأنّ هاتين الآيتين تكشفان عن الأمراض الأخلاقية التي كانت تكتنف حياة العرب الجاهلية . ولهذا تلا رسول الله الآيات التي تشير إلى هذه الأدواء والأمراض ليلفت نظر « سعد » إلى أهداف رسالته الكبرى .

العقيدة والدين في الجزيرة العربية :

عندما رفع « إبراهيم الخليل » لواء التوحيد في البيئة الحجازية ، وأعاد بناء الكعبة المعظمة ورفع قواعدها بمعونة ابنه « اسماعيل » ، تبعه في ذلك طائفة من الناس ممن أنار الله به قلوبهم ، إلاّ أنه من غير المعلوم إلى أيّ مدى استطاع ذلك النبي العظيم أن يعمّم دين التوحيد ويبسط لواءه على الجميع ، ويؤلف صفوفاً متراصة ، وجبهة عريضة قوية من الموحدين ، غير أن من المعلوم أنه أصبحت تلك المنطقة مسرحاً للوثنية ولعبادة الأشياء المختلفة مع الأيام فقد كانت الطبقة المثقفة من العرب تعبد الكواكب والقمر ، فهذا هو المؤرخ العربي الشهير الكلبي الذي توفي عام ٢٠٦ هجرية يكتب في هذا الصدد قائلاً كان « بنو مليح » من خزاعة يعبدون الجن وكانت « حمير » تعبد الشمس ، و« كنانة » تعبد القمر ، و« تميم » الدبران ، و« لخم » و« جذام » المشتري ، و« طي » سُهيلاً ، و« قيس » الشِعرىٰ ،

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٨ و٩ ، أعلام الورى : ص ٣٥ ـ ٤٠ .

و« أسد » عطارداً .

أما الدهماء والذين كانوا يشكلون أغلبية سكان الجزيرة فقد كانوا يعبدون ـ مضافاً إلى الصنم الخاص بالقبيلة أو العائلة ـ ثلاثمائة وستين صنماً ، وكانوا ينسبون أحداث كل يوم من أيام السنة إلى واحدٍ منها .

وقد دخَلَتْ عبادةُ الأصنام والأوثان في مكة بعد « إبراهيم الخليل » (ع) على يد « عمرو بن لحي » ، ولكنها لم تكن في بداية أمرها بتلك الصورة التي وصلت إليها في ما بعد فقد كانوا يعتبرونها في بداية الأمر شفعاء إلى الله ووسطاء بينه وبينهم ، ولكنهم تجاوزوا هذا الحد في ما بعد حتى صاروا يعتقدون شيئاً فشيئاً بأنها أصحاب قدرة ذاتية مستقلة ، وأنها بالتالي آلهة وأرباب .

وكانت الأصنام المنصوبة حول الكعبة تحظىٰ باحترام جميع الطوائف العربية ، ولكن الأصنام الخاصة بالقبائل فقد كانت موضع احترام جماعة خاصة فقط ، ولأجل أن تبقى حرمة هذه الأصنام والأوثان الخاصة محفوظة لا يمسها أحد بسوء كانوا ينشؤون لها أماكن وبيوت خاصة ، وكانت سدانة هذه البيوت والمعابد تنتقل من جيل إلى آخر بالوراثة .

أما الأصنام العائلية فقد كانت العوائل تقتنيها للعبادة كل يوم وليلة ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنعه في منزله هو أن يتمسح به أيضاً .

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها ، واتخذهُ رَبّاً وجعَلَ ثلاثة أثافيّ لقدْره ، وإذا ارتحل تركه .

وكان من شَغَفَ أهلِ مكة وَحُبّهم للكعبة والحرم أنه كان لا يسافر منهم أحدٌ إلاَّ حَمَل معه حَجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وحباً له فحيثما حلّوا نصبوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها ، ويمكن أن تكون هذه هي « الأنصاب » التي فُسرت بالأحجار العادية غير المنحوتة وتقابلها الأوثان ، وهي الأحجار المنحوتة ، على هيئة خاصة ، وأما « الأصنام » فهي المعمولة من خَشَب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان .

لقد بلغ خضوعُ العرب أمام الأصنام والأوثان حدّاً عجيباً جداً ، فقد كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون كسبَ رضاها بتقديم القرابين إليها ، وكانوا بعد نحر الهدايا يلطخون وجوه الأصنام ورؤوسها بدماء تلك الهدايا ، وكانوا يستشيرونها في مهام أمورهم ، وجلائل شؤونهم ، فإذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدّوا له ومعرفة عاقبته أخيرٌ هو أم شرٌّ استقسمَ لهم أمين القداح بقدحي (الأمر والنهي) وهي قطع كُتِبَ على بَعضها (إفْعَلْ) وعلى بعضها الآخر (لا تَفْعَلْ) فيمدُّ أمين القداح يده ويجيل القداح ويخرج واحداً فإنْ طَلَع الآمر فعل أو الناهي ترك .

وخلاصة القول ، إن الوثنيّة كانت العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية ، وقد تفشَّتْ فيهم في مظاهرَ متنوعة ومتعددة ، وكانت الكعبة المعظمة ـ في الحقيقة ـ محطَّ أصنام العرب الجاهلية وآلهتهم المنحوتة ، فقد كان لكل قبيلة في هذا البيت صنم ، وبلغ عدد الأصنام الموضوعة في ذلك المكان المقدس (٣٦٠) صنماً في مختلف الأشكال والهيئات والصور ، بل كان النصارى أيضاً قد نقشوا على

جدران البيت وأعمدته صوراً لمريم والمسيح والملائكة ، وقصّة إبراهيم .

وكان من جملة تلك الأصنام : « اللاّت » و« العُزّى » و« مناة » التي كانت تعتبرها قريش بنات الله ويختص عبادتها بقريش .

وكانت « اللاّت » تعتبر أُمَّ الآلهة ، وكان موضعها بالقرب من « الطائف » وكانت من الحجر الأبيض ، وأما « مناة » فكانت في عقيدتهم إلهة المصير وربّة الموت والأجل وكان موضعها بين « مكة » و« المدينة » .

ولقد اصطحب « أبو سفيان » معه يوم « أُحد » : « اللاّت » و« العزّى » .

ويروى أنه مرض ذات يوم « أبو أُحيحة » وهو رجل من بني أمية ، مرضه الذي مات فيه ؛ فدخل عليه أبو لهب يعوده ، فوجده يبكي ، فقال : ما يبكيك يا أبا أُحيحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بدّ منه ؟ قال : لا ولكني أخاف أن لا تُعبَد العزّى بعدي ! قال أبو لهب : والله ما عُبدَت حياتك (أي لأجلك) ولا تُترك عبادتُها بعدك لموتك !! فقال أبو أُحيحة : الآن علمتُ أن لي خليفة[1] .

ولم تكن هذه هي كل الأصنام التي كانت تعظِّمها وتعبُدُها العربُ بل كانت لقريش أصنامٌ في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها « هُبَل » ، كما أنه لم يكن لكل قبيلة صنم خاص فحسب بل

(١) الأصنام للكلبي : ص ٢٣ .

كانت كل عائلة تعبد صنماً خاصاً بها مضافاً إلى صنم القبيلة وكانت المعبودات تتراوح بين الكواكب ، والشمس ، والقمر ، والحجر ، والخشب ، والتراب ، والتمر ، والتماثيل المنحوتة المختلفة في الشكل ، والهيكل ، والاسم ، المنصوبة في الكعبة أو في سائر المعابد . ،لقد كانت الأصنام جميعها أو أغلبها معظَّمة عند العرب ، يتقرّبون عندها بالذبائح ويقرّبون لها القرابين ، وجرت عادة بعض القبائل آنذاك أن تختار من بين أفرادها كل سنة شخصاً في مراسيم خاصة ثم تذبحه عند أقدام أصنامها ، وتقبر جسده على مقربة من المذبح .

هذا العرض المختصر يكشف لنا كيف أن أرض الجزيرة العربية برمتها كانت قد أصبحت مسرحاً للأصنام ومستودعاً ضخماً للأوثان ، وكيف تحولت هذه البقعة من العالم ببيوتها وأزقتها وصحاريها وحتى بيت الله المحرم كانت قد تحولت إلى مخزن للنُصُب المؤلّهة ، والتماثيل المعبودة ، ويتجلى هذا الأمر من قول شاعرهم الذي أسلم وراح يستنكر ما كان عليه من عبادة الأصنام المتعددة الخارجة عن الإحصاء والعدّ ، إذ قال :

أَرَبّاً واحِداً أَمْ ألف رَب ... أدينُ إذا تقسَّمَتِ الأُمورُ

عَزلتُ اللاّت والعزى جميعاً ... كذلك يَفعَلُ الجَلِدُ الصّبُور

فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها ... ولا صَنَميْ بني عمرو أزُورُ

ولا غنماً أزورُ وكان ربّاً ... لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ

ولكــن أعبــدُ الــرحمــان رَبِّــي   لِيَغْفِـرَ ذَنبِـيَ الــربُّ الغفُــورُ[1]

وقـد حـدثـت بسبـب الاختـلاف والتعـدديـة فـي عبـادة الأصنـام والأوثان المؤلَّهة السخيفة الباطلة ، تناقضاتٌ ، وصراعاتٌ ، وحروب ومناحرات ، قد جرّت بالتالي ـ ويلات ومآس وخسائر مادية ومعنوية كبرى على تلك الجماعة المتوحشة ، الضالّة .

* * *

عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت :

وعن مصير الإنسان وحالته ما بعد الموت هذه المشكلة الفلسفيّة العويصة كانت رؤية العرب ونظرتهم تتلخص في ما يلي :

عندما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده على هيئة طائر شبيه بالبوم يسمى عندهم بـ « الهامّة والصدى » ثم يبقى هذا الطائر قريباً من جسد الميت ينوح نوحاً مقرحاً وموحشاً ، وعندما يوارى الميت يبقى هذا الطائر مقيماً عند قبره إلى الأبد ! .

وربما وقفَ على جدار منزل الميت أحياناً لِتَسقُّطِ أخبار عائلته والاطلاع على أحوالهم !! .

قال شاعرهم في ذلك :

سُلِّـطَ المـوتُ والمنـونُ عليهـم   فَلَهـم فـي صـدى المقـابـر هـامُ

وإذا كان المرء قد مات بموتَة غير طبيعية كما لو قُتِلَ ـ مثلاً ـ فإنّ

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : ج ٢ ص ٢٤٩ وجاء البصير .

ذلك الحيوان ينادي باستمرار : « اسقوني . . اسقوني » أي اسقوني بسفك دم القاتل وإراقته ؛ ولا يسكن عن هذا النواح والنداء الخاص إلاّ بعد الانتقام والثأر من قاتله .

قال أحدهم في ذلك :

فيـــا ربّ إنْ أهـــلَكْ ولـــم تُروَ هـــامي
بلَيلـي أَمُـتْ لا قبـرَ أَعطَـشَ مِـن قَبـري [1]

من هنا بالضبط تتجلى الحقيقة للقارىء ويعلم جيداً كيف أن تاريخ العرب ما قبل الإسلام وتاريخهم ما بعد الإسلام ما هو إلاّ تاريخان على طرفي نقيض :

فـذلـك تـاريـخ جـاهليـة ، ووثنيـة وإجـرام ، وهـذا تـاريـخ علـم ووَحدانية وإنسانية وإيمان ، وشتان ما بين وأد البنات ، وبين رعاية الأيتام ، وبين السلب والنهب والإغارة وبين المواساة والإيثار ، وبين عبادة الأوثان والأصنام الصماء العمياء والتقرب إلى الله تعالى .

الأخلاق العامة في المجتمع الجاهلي العربي :

ومهما يكن من أمر فإن عوامل مختلفة كالجهل وضيق ذات اليد ، وجشوبة العيش ، وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياة الاجتماعية ، وحالة البداوة الموجبة للتوحش ، والكسل والبطالة وغير ذلك من الرذائل الأخلاقية كانت قد حَوَّلتْ جوَّ الجزيرة العربية

(١) بلوغ الأرب : ج ٢ ص ٣١١ و٣١٢ .

إلى جوّ فاسدٍ قاتم ، حتى أن أموراً يندى لها الجبين قد أخذت طريقها إلى حياة تلك الجماعة وراحت تتخذ شيئاً فشيئاً صفة العادات المتعارفة !! .

لقد كانت الغارات وعملياتُ النهب ، والقمار ، والربا ، والأسر ، والسبي من الأعمال والممارسات الرائجة في حياة العرب الجاهلية ، وكان شرب الخمر ومعاقرتها بلا حدود هو الآخر من الأعمال القبيحة الشائعة لديهم ، ولقد ترسَّخت هذه العادة القبيحة في حياتهم إلى درجة أنها صارت جزء من طبيعتهم ، وحتى أن شعراءهم خصّصوا مساحات كبيرة في قصائدهم لامتداح الخمرة ووصفها وكانت الحانات مفتوحة في وجه الناس طيلة الوقت تستقبل الزبائن ، وقد نُصِبَت عليها رايات .

فها هو شاعرُهم يقول :

إذا متُّ فادفِنيّ إلى جَنبِ كَرَمةٍ تُرَوّي عِظامي بَعدَ مَوتي عُرُوقُها
ولا تَـدفِنَنـيِّ فـي الفَـلاةِ فـإنَّنـي أخافُ إذا ما مِتُّ أن لا أذوقُها[1]

لَقَدْ بَلغت معاقرةُ الخمر من الرواج في الحياة العربية الجاهلية بحيث أصبحت لفظة « التجارة » تعادل في عرفهم بيع الخمور ، والإتجار بها .

ولقد كانت الأخلاق تفسّر عند العرب الجاهلية بنحو آخر عجيب ، فإنهم مثلاً كانوا يمدحون الشجاعة والمروءة والغيرة ،

(١) تفسير مفاتيح الغيب : ج ٢ ص ٢٦٢ طبعة مصر ١٣٠٥ .

ولكنهم كانوا يقصدون من « الشجاعة » القدرة على الإغارة وسفك الدماء ، وكثرة عدد القتلى في الحروب !! كما أن الغيرة كانت تعني عندهم وأد البنات حتى أن هذا العمل الوحشيّ كان يُعدّ عندهم من أعلى مظاهر الغيرة ، وكانوا يرون الوفاء والوحدة في نصرة الحليف حقّاً أو باطلاً ، وهكذا فإنّ أكثر القصص التي نُقِلَت عن شجاعتهم وشَغَفهم بالحرية كانت الشجاعة والشغف بالحرية فيها تتلخص وتتجسَّد في الإغارة والانتقام .

إنهم كانوا يعشقون ـ في حياتهم ـ المرأة والخمرة والحرب ليس غير .

النزوع إلى الخرافة والأساطير في المجتمع الجاهلي :

ولقد بَيَّنَ القرآنُ الكريمُ أهدافُ البعثة المحمَّدية المقدسة بعبارات موجزة ، وممّا يلفت النظر ـ أكثر من أيّ شيء ـ ما ذكرهُ تعالى في الكتاب العزيز حول أهم هذه الأهداف والغايات العليا إذ قال : ﴿ وَيَضَعُ عنهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغْلاَلَ الَّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] .

فلا بدَّ أن نعرفَ ماذا كانت تلك الأغلال والسلاسلَ التي كانتْ عَربُ الجاهلية ترزحُ تحتها حتى قبَيْل بُزوغ فجر الإسلام ؟ .

لا ريبَ أنّها لم تكن من جنس الأغلال والسَلاسل الحديدية ، ولم يكن المقصودُ منها ذلك أبداً ، فماذا كانت إذَنْ يا ترى ؟ .

أجَلُ إنّ المقصودَ مِنْ هذه الأغلال هي الأوهام والخرافات التي

(١) الأعراف : ١٥٧ .

كانت تقيِّد العقلَ العربي عن الحركة ، وتعيقه عن النمو والتقدم ، ولا شك أن مثل هذه السلاسل والأغلال التي تقيّد الفكر البشري وتمنعه من التحليق والتسامي ، أثقل بكثير من الأغلال والقيود الحديدية وأضرّ على الإنسان منها بدرجات ومراتب ، لأنّ الأغلالَ الحديديّة توضَع عن الأَيدي والأرجل بعد مضي زمان ، ويتحرر الإنسان منها ، بعد حين ، ليدخل معترك الحياة بعقلية سليمة مبرّأة من الأوهام والخرافات ، وقد زالَتْ عنه ما تركته تلك الحدائد من جروح وآلام .

أما السلاسل والأغلال الفكرية (ونعني بها الأوهام والأباطيل والخرافات) التي قد تهيمن على عقل الإنسان وتكبّلُ شعوره فإنها طالما رافقت الإنسان إلى لحظة وفاته ، وأعاقته عن المسير والانطلاق ، دون أن يستطيع التحرر منها ، والتخلص من آثارها ، وتبعاتها ، اللهم إذا استعان على ذلك بالتفكير السليم ، والهداية الصحيحة .

فبالتفكير السليم وفي ضوء العقل البعيد عن أيّ وهم وخيال يمكنه التخلصُ مِن تلك الأغلال والقيود الثقيلة ، وأما بدون ذلك فإن أيّ سعي للإنسان في هذا السبيل سيبوء بالفشل .

إن من أكبر مفاخر نبيّ الإسلام أنه كافَحَ الخرافات ، وأعلن حرباً شعواء على الأساطير ، ودعا إلى تطهير العقل من أدران الأوهام والتخيلات ، وقال : لقد جئت لآخذ بساعِد العقل البشري ، وأشدّ عضدَه ، وأحارب الخرافة مهما كان مصدرها . وكيفما كان لونها وأيّاً كانت غايتها ، حتى لو خَدَمَت أهدافي ، وساعَدَتْ على تحقيق مقاصدي المقدسة .

إنّ ساسة العالم الذين لا تهمهم إلاّ إرساء قواعد حكمهم وسلطانهم على الشعوب لا يتورعون عن التوسل بأية وسيلة ، والاستفادة من أية واقعة في سبيل تحقيق مآربهم حتى أنهم لا يتأخرون عن التذرع بترويج الخرافات والأساطير القديمة بين الشعوب للوصول إلى سدة الحكم ، أو البقاء فيها ما أمكنهم ذلك . ولو اتفق أن كانوا رجالاً موضوعيين ومنطقيين فإنهم في هذه الحالة دافعوا عن تلك الخرافات والأوهام والأساطير التي لا تنسجم مع أي مقياس عقلي بحجة الحفاظ على التراث القومي ، أو احترام رأي أكثرية الشعب ، أو ما شابه ذلك من الحجج المرفوضة .

ولكنّ رسولَ الإسلام لم يكتف بإبطال المعتقدات الخرافية التي كانت تلحِق الضرر به ، وبمجتَمعه ، بل كان يكافح ويحارب بجميع قواه كل أُسطورة أو خرافة شعبيةٍ أو فكرة فاسدة باطلة ، تخدم غرضه ، وتساعد على تحقيق التقدم في دعوته ويسعى إلى أن يجعلَ الناسَ يعشقون الحقيقة لا أن يعبدوا الخرافات ، ويكونوا ضحايا الأساطير والأوهام ، وإليك واحداً من هذه المواقف العظيمة على سبيل المثال لا الحصر .

لما ماتَ إبراهيم ابن رسول الله (ص) وهو ابنه الوحيد ، حزن عليه النبي حزناً شديداً فكانت تنحدر الدموع منه على غير اختيار ، واتفق أن انكسفت الشمس في ذلك اليوم أيضاً ، فذهب المولعون بالخرافة في ذلك المجتمع (العربي) على عادتهم إلى ربط تلك الظاهرة بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلاً على عظمة المصاب به فقالوا : انكسفت الشمسُ لموت ابن رسول الله ، فصعد

رسولُ الله (ص) المنبرَ وقال : « أيُّها الناس إنَّ الشمسَ والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره ، ومطيعان له ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياتِه ، فإذا انكسفا ، أو أحدُهما صلّوا » .

ثم نزل من المنبر فصلّى بالناس صلاة الكسوف وهي ما تسمى بصلاة الآيات[١] .

إن فكرة انكساف الشمس لموت ابن صاحب الرسالة وإن كان من شأنها أن تقوّي من موقع النبي في قلوب الناس ، وتخدم بالتالي غرضه ، وتساعد على انتشار دعوته ، وتقدمها ، إلاّ أنه صلّى الله عليه وآله رفض أن يحصل على المزيد من النفوذ في قلوب الناس من هذا الطريق .

على أن محاربة النبيّ (ص) للخرافات والأساطير التي كانت نموذجاً بارزاً من محاربته للوثنيّة ، وتأليه المخلوقات وعبادتها ، لم تكن من سيرته في عهد الرسالة بل كان ذلك دأبه في جميع أدوار حياته ، حتى يوم كان صبياً يدرج ، فإنه كان يحارب الأوهام والخرافات ، ويعارضها في ذلك السن أيضاً .

تقول حليمةُ السعدية مرضعة النبيّ (ص) : لما تمَّ له (أي لمحمَّد) ثلاث سنين قال لي يوماً : « يا أُمّاهُ ماليَ لا أرَى أخَوَيَّ بالنّهار » ؟ قلت له : يا بنيّ إنهما يرعيان غنيمات ، قال : « فَما لي لا أخْرُج مَعَهما » ؟ قلت له : تحبُّ ذلك ؟ قال : نَعَمْ .

---

(١) بحار الأنوار : ج ٩١ ص ١٥٥ .

فلما أصبح دهَّنته وكَحَّلته وعلَّقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانية (وهي من التمائم الباطلة كانت تعلّق على الشخص في أيام الجاهلية لدفع الآفات عنه) ، فنزَعها ، وقال لي : « مَهْلاً يا أمهاه فَإنَّ مَعِيَ مَنْ يَحْفَظُنِيْ »[1] .

الخرافات في عقائد العرب الجاهلية :

كانت عقائدُ جميع الأمم والشعوب العالمية يوم بزوغ شمس الإسلام ممزوجة بألوان من الخرافات والأساطير .

فالأساطير اليونانية والساسانية كانت تخيّم على أفكار الشعوب التي كانت تعدُّ في ذلك اليوم من أرقى الشعوب والمجتمعات .

على أنه لا تزال خرافات كثيرة تسود وإلى الآن في المجتمعات الشرقية المتقدمة ، ولم تستطع الحضارةُ الراهنة أن تزيلها من حياة الناس ومعتقداتهم .

إن تنامي الخرافة « يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمي والثقافي في كل مجتمع ، فبقدر ما يكون المجتمع متخلفاً من الناحية الثقافية والعلمية تزداد نسبة وجود الخرافة ومقدار نفوذها في عقول الناس ونفوسهم .

لقد سجل التاريخ عن سُكّان شبه الجزيرة العربية طائفة هائلة وكبيرة من الأوهام والخرافات ، وقد جمع السيّد محمود الآلوسي أكثرها في كتابه « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » ، مُرفقاً كل

(١) بحار الأنوار : ج ١٥ ص ٣٩٢ .

ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعرية وغيرها[1] .

ومن يتصفح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات التي كانت تملأ العقل العربي الجاهلي آنذاك وتعشعش في نفوسهم ، وقد كانت هذه السلسلة الرهيبة من الأوهام هي السبب في تخلّف هذا الشعب عن بقية الشعوب والأُمم الأخرى .

ولقد كانت هذه الخرافات من أكبر السدود في طريق تقدم الدعوة الإسلامية ، ولهذا اجتهد النبيُّ الأكرم (ص) بكل طاقاته في محو وإزالة آثار الجاهلية التي لم تكن سوى تلك الأوهام والأساطير والخرافات .

فعندما وجَّه « معاذ بن جبل » إلى اليمن أوصاه بقوله :

« وأمِتْ أمرَ الجاهِليَّة إلاّ ما سنَّهُ الإسلامُ وَأظهِرْ أمرَ الإسلام كلّه صغيرهُ وكبيرهُ »[2] .

لقد وقف رسولُ الله (ص) أمام جماهير كبيرة من العرب الذين كانت عقولُهم ترزح تحت الأفكار والمعتقدات الخرافية ردحاً طويلاً من الزَمن يعلن عن نهاية عهد الأفكار والأوهام الجاهلية إذ قال : « كُلُّ مأثرة في الجاهِليَّة تحتَ قَدَميّ »[3] .

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي :

وللوقوف على مَدى أهمية التعاليم الإسلامية وقيمتها نلفت نظر القارىء الكريم إلى نماذج من هذه الخرافات ، ومن أراد التوسع راجع

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : ج ٢ ص ٢٨٦ ـ ٣٦٩ .
(٢) تحف العقول : ص ٢٥ .
(٣) السيرة النبوية : ج ٣ ص ٤١٢ .

المصدر المذكور .

١ ـ الاستسقاء بإشعال النيران :

كانت العرب إذا أجدبت ، وأمسكت السماء عنهم ، وأرادوا أن يستمطروا عَمَدوا إلى السلع والعشر (وهما أشجار سريعة الاشتعال) فحزموهما ، وعقدوهما في أذناب البقر ، وأضرموا فيها النيران وأصعَدوها في جبل وَعر ، واتبعوها يدعون الله تعالى ، ويستسقونه ، وإنما يضرمون النيران في أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار . . . وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات الأخرى ، وكانت هذه الثيران والأبقار إذا صاحت من وجع الاحتراق ظنّت العرب بأن ذلك هو الرعد !!! .

وقد قال شاعرهم في ذلك :

يا (كحلُ) قد أثقَلتَ أذنابَ البَقَر بسَلــع يُعقَــدُ فيهــا وعُشــر

فَهَـل تَجُـوديـنَ بِبَـرقٍ أو مَطَـر؟

٢ ـ ضرب الثور إذا عافت البقر :

كانوا إذا أورَدُوا البقر فتمتنع من شرب الماء ، ضرَبوا الثورَ لِيقتحمَ الماء ، بعدَه ويقولون : إنّ الجنَّ تصدُّ البقرَ عن الماء ، وأن الشيطان يركَبُ قَرنَي الثورَ ، ولا يدع البقر تشربُ الماء ، ولذلك كانوا يضربون وجه الثور .

وقد قال في هذا شاعرهم :

كَـذاك الثـورُ يضـرَبُ بـالهَـراوىٰ إذا مـا عـافَـت البَقَـر الظِمـاءُ

وقال آخر :

فإنــي إذاً كالثَــــور يَضــــرب جَنـــبُهُ
إذا لَم يَعْفَ شُرباً وعافت صواحبه[1]

وقال ثالث :

فـلا تجعلـوهـا كـالبقير وفحلُهـا يُكسِّـر ضـرباً وهـو للـورد طـائـعُ
ومـا ذَنبُـه إن لـم تـرد بَقَـراتـه وَقَدْ فاجأتْها عند ذاك الشرائعُ

٣ ـ كي صحيح الإبل ليبرأ السقيم :

إذا كان يصيب الإبل مرض أو قرح في مشافرها وأطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكوَوْا مِشفَرَهُ وعَضُدَه وفَخذَه يرون أن ذلك إن فعلوه ذهبَ العُرُّ والقرح والمرض عن إبلهم السقيمة ، ولا يعرف سبب ذلك .

وقد احتمل البعض أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك وقاية للصحاح من الإصابة بالعُرّ الذي أصاب غيرها ، أو أنه نوع من المعالجة العلمية ، ولكن لماذا ترى كانُوا يَعمدُون إلى بعير واحد من بين كل تلك الإبل ، فلا بدّ من القول بأنّ هذا الفعل كان ضرباً من الأعمال الخرافية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع الجاهلي قبل الإسلام .

وقد قال شاعرهم عن ذلك :

وَكَلَفتنـي ذنـبَ امـرىء وتـركتُـه كذي العُرّ يكوى غيرُه وهو راتع

(١) عافت أي كرهت شرب الماء .

وقال آخــر :

كمن يكوي الصحيح يروم بُرءاً بِــه مِــن كـلِ جَـربـاء الإهــاب

وقال ثالث :

فـالـزمْتَنِـي ذنبـاً وغيـريَ جـرَّه حنانيل لا تكو الصّحيح بأجربا

٤ ـ حبس ناقة عند القبر إذا مات كريمٌ :

إذا ماتَ منهم كريمٌ عقلوا ناقته أو بعيره عند القبر الذي دُفِنَ فيه ذلك الكريم ، فعكَسوا عنقها ، وأداروا رأسها إلى مؤخَّرها وتركوها في حفيرة لا تطعَم ولا تسقى حتى تموت ، وربما أُحرقَت بعد موتها وربما سُلِخَتْ ومُلىء جِلدُها ثماماً ، وكانوا يزعمون أن مَن مات ولم يُبْلَ عليه (أي لم تعقل ناقة عند قبره هكذا) حشر ماشياً ، ومن كانت له بلية (أي ناقة عقلت هكذا) حُشِر راكباً على بليّته .

وقد قال أحدهم في هذا الصدد :

إذا مِـتُّ فـادفنـيِّ بحـرّاء مـا بهـا سوى الأصرخين أو يفوِّز راكبُ

فـإن أنـتَ لـم تُعْقـرْ عَلـيّ مطيَّتـي فلا قامَ في مال لك الدهر حالبُ

وقال آخر وهو يوصي ولده بأن يفعلوا له ذلك :

أَبُنــيَّ لا تنــسَ البليّــة إنهـــا لأبيـك يــومَ نُشُــوره مــركــوبُ

٥ ـ عقر الإبل على القبور :

كانوا إذا ماتَ أحدُهم ضربوا قوائم بعير بالسّيف عند قبره ، وقيل

إنهم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت المضياف على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للأضياف .

وقد أبطلت الشريعة المقدسة هذه العادة الباطلة في ما أبطلته فقد جاء في الحديث « لا عَقْر في الإسلام » .

وقد قال أحدُهم حولَ العَقر هذا :

قُـلْ للقـوافِـل والغُـزاة إذا غَـزَوا — والبـاكـريـن وللمجـدَ الـرائـح
إنّ الشَجـاعـة والسَمـاحـة ضُمِّنـا — قبراً بِمروَ عَلىٰ الطريق الواضح
فـإذا مـررتَ بِقبـره فـاعقِـرْ بـهِ — كُـومَ الجلاد وكـل طِـرف سـابـع
وأنضـحْ جَـوانـبَ قبـره بـدمـائهـا — فَلَقَـدْ يكـونُ أَخـا دم وذبـائـح

٦ ـ نهيق الرجل إذا أراد دخول القرية (التعشير) :

ومن خرافاتهم أن الرجلَ منهم كان إذا أرادَ دخولَ قرية فخافَ وباءها أو جنّها وقف على بابها قبل أن يدخلها فنَهقَ نهيقَ الحمار ، ثم علّق عليه كعبَ أرنب كأنّ ذلك عوذة له ، ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير .

قال شاعرهم :

ولا يَنْفـعُ التعشيـر أن حُـمَّ واقـع — ولا زعزعٌ يُغني ولا كَعبُ أرنب

وقال الآخر :

لعمريَ إن عشّرتُ من خيفة الرّدى — نِهــاق حَميــر أننــي لجــزوعُ

٧ ـ تصفيق الضالّ في الصحراء ليهتدي :

فقد كان الرجلُ منهم إذا ضَلّ في فلاة قَلَب قميصه وصفق بيديه ، كأنه يومىء بهما إلى إنسان مهتدى .

قال أعرابي في ذلك :

قلبتُ ثيابي والظنونُ تجولُ بي ويرمي برجلي نحو كلّ سَبيل

فلأياً بلائي ما عرفت حليلتي وأبصرتُ قصداً لم يُصَب بدليل

٨ ـ الرتــم :

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عَمَد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإنْ وجده بحاله علـم أن زوجتـه لـم تخنـهُ وإن لـم يَجِـدْه أو وَجَـدَهُ محلـولاً قـال : قـد خانتني . وذلك العقد يسمىٰ « الرتم » .

قال شاعرهم في ذلك :

خـانتـه لمـا رأتْ شَيْبـاً بمفـرقـه وغَـرّه حِلفُهـا والعَقْـدُ للـرتـم

وقال الآخر :

لا تحسَبــنّ رتــائمــاً عقــدّنَهــا تنبيـك عنهـا بـاليقيـن الصـادق

وقال ثالث :

يعلـل عمـروٌ بـالـرتـائـم قلبـه وفي الحيّ ظبيٌ قد أحلّت محارقه

فما نَفَعَتْ تِلكَ الوصايا ولا جَنَتْ عَليـهِ سـوى مـا لا يحـبُّ رتـائمـه

٩ ـ وطيُ المرأة القتيل الشريف لبقاء ولدها :

فقد كانت العرب تقول : إن المرأة المقلاة وهي التي لا يعيش لها وَلَدٌ ، إذا وطئت القتيلَ الشريف عاشَ وَلَدُها .

قال أحدهم :

تظلّ مقاليت النساء يَطأنه ... يَقُلْنَ ألا يلقى على المرء مئزر

١٠ ـ طرح السن نحو الشمس إذا سقطت :

ومن تخيّلات العرب وخرافاتهم أن الغلام منهم إذا سَقَطَتْ له سنٌ أخذها بين السبابة والأبهام واستقبل الشمسَ إذا طلعت وقذف بها وقال : يا شمس أبدليني بسنّ أحسن منها ولتجر في ظلمها آياتك ، أو تقول أياؤك ، وهما جميعاً شعاع الشمس .

قال أحدهم وهو يصف ثغر معشوقته :

سقته أياة الشمس إلاّ لثاته ... أسفَّ ولم تكرم عليه بأثمدِ

أي كأن شعاع الشمس أعارته ضوءها .

هذا وقد أشار شاعرُهم إلى هذا الخيال (أو قل الخرافة المذكورة) إذ قال :

شادنٌ يحلو إذا ما ابتسَمَتْ ... عن أقاح كأقاح الرمل غر

بدلته الشمسُ من منبته ... بَرَداً أبيضَ مصقولَ الأثر

١١ ـ تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون :

ومن تخيّلات العرب أنهم كانوا إذا خافُوا على الرجل الجنونَ ، وتعرّض الأرواح الخبيثة له نجّسوه بتعليق الأقذار كخرقة الحيض وعظام الموتى قالوا : وأنفعُ من ذلك أن تعلّقُ عليه طامثٌ عظام موتى ثم لا يراها يومَه ذلك . وأنشدوا في ذلك :

فلو أن عِندي جارتَين وراقياً وعَلَّقَ أنجاساً عليّ المعلقُ

وقالت امرأة وقد نَجّست ولَدها فلم ينفعه ذلك ومات :

نجّستُهُ لا ينفعُ التنجيسُ والموتُ لا تفوتُه النفوسُ

١٢ ـ دم الرئيس يشفي :

فقد كانت العرب تعتقد أنّ دم الرئيس يشفي من عضة الكلب الكَلِب .

قال الشاعر :

بناةُ مكارم وأُساة جُرح دِماؤُهُمُ من الكَلبِ الشفاءُ

وقال آخر :

أحلامُكُمْ لسِقامِ الجهل شافيةٌ كَما دِماؤكُمُ تشفي من الكَلَب

١٣ ـ شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل :

ومن أوهامهم وتخيلاتهم أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب إمرأة وأحبّته فشق برقعها وشقّت رداءه صلح حبُهما ودام ، فإن لم يفعلا ذلك فَسَد حبُّهما ، قال في ذلك أحدهم :

وكــم شَقَقْنــا مِــن رداء محبَّــرٍ ... وَمِنْ بُرقُعٍ عَنْ طَفلة غير عانس
إذا شُـق بُـردٌ شُـق بـالبـرد بُـرقـعٌ ... دواليـك حتـى كلُّنـا غيـر لابـسِ
نروم بهذا الفعل بُقياً على الهوى ... والف الهوى يُغوى بهذي الوساوس

١٤ ـ معالجةُ المرضى بالأمور العجيبة :

ومن مذاهبهم الخرافية في معالجة المرضى إذا بثرت شفة الصبي حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحيّ : الحلأ الحلأ ، الطعام الطعام ، فَتُلقي له النساءُ كِسَرَ الخبز ، وأقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يُلقي ذلك للكلاب فتأكله ، فيبرأ مِنَ المرض فإن أكل صبيّ من الصبيـان مـن ذلـك الـذي ألقـاهُ للكـلابِ تمرة أو لقمـة أو لحمـة بثـرت شفته .

فقد رويت عن إمرأة أنها أنشدت :

ألا حــلأ فــي شفــة مشقــوقَــه ... فقــد قضــى منخلُنــا حقــوقَــه

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم ، وظنُّوا أنَّ به مسّاً من الجن لأنه قَتَلَ حية ، أو يربوعاً ، أو قنفذاً ، عملوا جِمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق وملأوها حنطة وشعيراً وتمراً ، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك ، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين فإذا رأوا أنها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وإن رأوها قد تساقطت وتبدّد ما عليها من الميرة قالوا : قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدفّ .

قال بعضهم :

قالُوا وقد طالَ عَنائي والسَقمُ ... إحمِلْ إلى الجِن جمالات وضَمّ

فَقَد فَعَلت والسقام لم يرم ... فبالذي يملَكَ برئي اعتصمْ

وقال آخر :

فيا ليتَ أن الجن جازُوا حمالَتي ... وزُحزحَ عني ما عناني من السقم

أُعلّلُ قلبِي بالّذي يزعُمونه ... فَياليَتَني عُوفيتِ في ذلك الزعم

ومن مذاهبهم في هذا المجال أن الرجلَ منهم كان إذا ظهرت فيه القوباء (وهو مرض جلدي) عالجها بالريق .

قال أحدهم :

يا عَجَباً لهذه الفليقة ... هَل تُذهِبنّ القُوَباء الريقة

١٥ ـ خرافاتٌ في مجال الغائب :

كانوا إذا غُمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يعرفوا له خبراً جاؤوا إلى بئر عادية (أيّ مظلمة بعيدة القعر) أو جاؤوا إلى حصن قديم ونادوا فيه : يا فلان أو يا أبا فلان (ثلاث مرات) ، ويزعمون أنه إن كان مَيتاً لم يسمَعوا صوتاً ، وإن كان حياً سمعُوا صوتاً ربّما توهموه وهماً ، أو سمعوه من الصدىٰ فَبَنَوا عليه عقيدَتهم ، قال بعضهم في ذلك :

دعوتُ أبا المِغوار في الحَفْر دعوة ... فما آضَ صوتي بالذي كنت داعيا[1]

أظنُ أبا المغوار في قصر مظلم ... تجرُّ عليه الذارياتُ السَوافيا

(١) آضَ أي عاد ورجع .

وقال آخر :

وكَــمْ نــاديتُــه والليــلُ ســاج بِعــاديّ البِثــار فمــا أجــابــا

ومن ذلك أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال : (أرى من أُحبُّه) فإنْ كان غائباً توقع قدومَه ، وإنْ كان بعيداً توقَّعَ قربه ، وقالَ أحدهم :

إذا اختلَجَـتْ عَينـي أقـولُ لعَلَّهـا فَتاة بني عمرو بها العينُ تَلْمعُ

وقال آخر :

إذا اختلَجَـت عَينـي تَيقَّنـتُ إنّنـي أراكَ وَإن كــانَ المــزارُ بَعيــدا

وكانوا إذا لا يُحِبُّون لمسافر أنْ يعودَ إليهم أوقدُوا ناراً خَلفَهُ ويقـولـون فـي دعـائهـم : « أبعَـدهُ الله وأسحقَـهُ وأوقـدَ نـاراً إثـرهُ » قـال بعضهم :

صحـوتُ وأوْقـدتُ لِلجَهـلِ نـاراً وَرد عليـك الصبـا مـا استعـارا

١٦ ـ عقائدهُمْ العجيبة في الجنّ وتأثيره :

كانت العربُ في الجاهلية تعتقد في الجن وتأثير هذا الكائن في شتى مجالات حياتهم اعتقاداتٌ عجيبة وفي غاية الغرابة .

فتارة تستعيذُ بالجن ، وقد استعاذَ رجلٌ منهم ومعه ولدٌ فأكله الأسدُ فقال :

قَــدْ استعَــذْنــا بعظيــم الــوادي مِــن شَــرٍّ مـا فيــهِ مِــنْ الأعــادي

فلـم يجـزنـا مـن هـزبـر عـادي

وعن الاستعاذة بالجنّ قال الله سبحانَهُ في القرآن : ﴿ وَأَنَّهُ كانَ رجالٌ مِنَ الإنْسِ يَعُوذُونَ بِرجال مِنَ الجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهقاً ﴾[1] .

ومن ذلك اعتقادُهُم بهتاف الجن . ولهم في هذا المجال أساطيرُ خرافيةٌ مذكورة في محلّها .

ومن هذا القبيلُ اعتقادُهم بالغول ، فقد كانت تزعم العربُ في الجاهلية أن الغيلان في الفلوات (وهي من جنس الشياطين) تتراءى للناس ، وتغول تغولاً أي تتلوّن تلوناً فتضلّهم عن الطريق ، وتهلكهم ، ومن هذا القبيل أيضاً اعتقادهم بالسعالي !! .

وقد قال أحدهم في ذلك :

وساحرةٌ عينيّ لو أنَّ عينَها ... رَأَت ما أُلاقيهِ مِنَ الهَول جَنّتِ

أبيتُ وسعلاةٌ وغولٌ بِقَفْرة ... إذا الليلُ وأرى الجن فيه أرنت

١٧ ـ تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء :

ومن مذاهبهم الخرافية تشاؤمهم بأشياء كثيرة وحالات عديدة :

فمن ذلك : تشاؤمهم بالعطاس .

وتشاؤمهم بالغراب حتى قالوا : فلانٌ أشأم من غراب البَيْن ، ولهم في هذا المجال أبياتٌ شعرية كثيرةٌ منها قول أحدهم :

ليتَ الغرابُ غداة ينعَبُ دائباً ... كانَ الغرابُ مقطّعَ الأوداجِ

وكذا تشاؤُمُهمْ وتطيّرهم بالثور المكسور القرن والثعلب . إلى

(١) الجن : ٦ .

غير ذلك من التخيلات والأوهام والخرافات والأساطير ، والاعتقادات العجيبة ، والتصورات الغريبة التي تزخر بها كتبُ التاريخ المخصصةِ لبيان أحوال العرب قَبْلَ الإسلام وحتى أبان قيام الحضارة الإسلامية .

« ١٣ »

حكماء العرب

وكان للعرب حكّام ترجع إليها في أمورها ، وتتحاكم في منافراتها . . ومواريثها . . ومياهها . . ودمائها ، لأنه لم يكن دين يرجع إلى شرائعه ، فكانوا يحكّمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسنّ والمجد والتجربة .

وكان أول من استقضي إليه فحكم : الأفعى بن الأفعى الجرهمي ، وهو الذي حكم بين بني نزار في ميراثهم . . ثم سليمان بن نوفل . . ثم معاوية بن عروة . . ثم سخر بن يعمر بن نفاثة بن عدي بن الدّئل . . ثم الشدّاخ وهو : يعمر بن عوف بن كعب بن ليث بن عبد مناة بن كنانة . . وسويد بن ربيعة . . ومخاشن بن معاوية ، وكان يجلس على سرير فسمي ذا الأعواد . . وأكثم بن صيفي بن رباح بن

مخاشن . . وعامر بن الظرب . . وعامر الفزاري . . وغيلان الثقفي . . وسنان المرّيّ . . والحارث بن عباد . . وعامر الضحيان بن الضحاك بن النمر بن قاسط . . والجعد الشيباني . . ووكيع الأيادي ، وهو صاحب الصّرح بالحزورة . . وقس بن ساعدة الأيادي . . وحنظلة القضاعي . . وعمرو بن حُمَمَة الدّوسي .

وكان في قريش حكّام منهم ، عبد المطلب . . وحرب بن أمية . . والزبير بن عبد المطلب . . وعبد الله بن جدعان . . والوليد بن المغيرة المخزومي .

« ١٤ »

أزلام العرب

وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كل أمورها ، وهي القداح ، ولا يكون لها سفر ولا مقام ، ولا نكاح ، ولا معرفة حال ، إلاّ رجعت إلى القداح . وكانت القداح سبعة : فواحد مكتوب عليه : الله عزّ وجل . والآخر : لكم . وثالث : عليكم . ورابع : نعم . وخامس : منكم . وسادس : من غيركم . وسابع : الوعد . فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلى القداح فضربوا بها ، ثم عملوا بما يخرج من القداح لا يتعدونه ولا يجوزونه ، وكان لهم أمناء على القداح ، لا يثقون بغيرهم .

وكانت العرب إذا كان الشتاء ونالهم القحط ، وقلّت ألبان الإبل ، استعملوا الميسر ، وهي الأزلام ، وتقامروا عليها ، وضربوا

بالقداح . وكانت قداح الميسر عشرة : سبعة منها لها أنصب ، وثلاثة لا أنصب لها . فالسبعة التي لها أنصب يقال لأولها : الفذّ ، وله جزء . والثاني : التوأم ، وله جزآن . والثالث : الرقيب ، وله ثلاثة أجزاء ، والرابع : الحلس ، وله أربعة أجزاء ، والخامس : النافس ، وله خمسة أجزاء ، والسادس : المسبل ، وله ستة أجزاء ، والسابع : المعلّى ، وله سبعة أجزاء . والثلاثة الباقية تسمى : المنيح . . والسفيح . . والوغد .

فتشترى الجزور بأي ثمن بلغت ، ولا يُدفع الثمن ، ثم يدعى الجزار ، فيقسمها عشرة أجزاء ، ثم يأخذ الجزّار أجزاءه ، وهي الرأس والأرجل ، وأُحضرت القداح العشرة ، واجتمع فتيان الحي ، فأخذ كل فرقة على قدحاً لهم ويسارهم ، فتضرب القداح فإذا خرج الفذّ أخذ جزء ، وإن لم يكن يخرج له غُرم ثمن جزء من الجزور . ويأخذ الثاني التوأم ، وله نصيبان من أجزاء الجزور ، فإن خرج أخذ جزأين من الجزور ، وإن لم يخرج غرم ثمن الجزأين . وهكذا . .

وكانوا يفتخرون به ويرون أنه من فعال الكرم والشرف ، ولهم في هذا أشعار كثيرة يفتخرون بها .

« ١٥ »

أسواق العرب

كانت أسواق العرب عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ، ويجتمع فيها سائر الناس ، ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم . وهي :

دومة الجندل : يقوم في شهر ربيع الأول ، ورؤساؤها غسّان وكلب ، أي الحيين غلب ، قام . ثم المشقّر : بهجر ، يقوم سوقها في جمادى الأولى ، تقوم بها بنو تيم ، رهط المنذر بن ساوى . ثم صُحار : يقوم في أول يوم من رجب ، ولا يحتاج فيها إلى خفارة . ثم يرتحلون من صُحار إلى ريّا ، يعشرهم فيها الجلندَى وآل الجلندى .

ثم سوق الشِّحْر شِحْر مَهْرَة : فيقوم تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود النبي .

ثم سوق عدن : يقوم في أول يوم من رمضان ، ويعشرهم بها الأبناء ، ومنها يحمل الطيب إلى الآفاق .

ثم سوق صنعاء : يقوم في نصف شهر رمضان ، يعشرهم فيها الأبناء .

ثم الرابية : بحضرموت ، ولم يكن يوصل إليها إلاّ بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان مَنْ عزّ فيها بزّ ، وكانت كندة تخفر فيها .

ثم سوق عكاظ : بأعلى نجد ، يقوم في ذي القعدة ، وينزلها قريش وسائر العرب إلاّ أن أكثرها مضر ، وبها كانت مفاخرة العرب . . وحمالاتهم ومهادناتهم .

ثم سوق ذي المجاز : وكانت العرب ترتحل من سوق عكاظ وذي المجاز إلى مكة لحجّهم .

وكان في العرب قوم يستحلّون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، فسمّوا المحلّين ، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء ، وارتكاب المنكر ، فيسمّون الذادة المحرمين . فأما المحلّين فكانوا قبائل من أسد . . وطيء . . وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة . . وقوماً من بني عامر بن صعصعة .

وأما الذادة المحرمين فكانوا : من بني عمرو بن تميم . . وبني حنظلة بن زيد مناة . . وقوم من هذيل . . وقوم من شيبان . . وقوم من

بني كلب بن وبرة . فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس ، وكانت العرب تضع أسلحتها في الأشهر الحرم إلاّ هؤلاء .

وكانت العرب تحضر سوق عكاظ وعلى وجوهها البراقع ، فيقال : أن أول عربي كشف قناعه ظريف بن غنم العنبري ، ففعلت العرب مثل فعله .

« ١٦ »

شعراء العرب

وكانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة وكثير العلم ، فإذا كان في قبيلة الشاعر الماهر . . المصيب المعاني . . المخيّر الكلام ، أحضروه في أسواقهم التي كانت تقوم لهم في السنة ومواسمهم عند حجّهم البيت ، حتى تقف وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعره ، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم ، وشرفاً من شرفهم .

ولم يكن لهم شيء يرجعون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلاّ الشعر ، فيه كانوا يختصمون وبه يتمثّلون . . يتفاضلون . . يتقاسمون . . يتناضلون . . يُمدحون ويعابون . فكان ممّن قدّم شعره في جاهلية العرب على ما أجمعت عليه الرواة وأهل العلم بالشعر ، وجاءت به الأخبار والآثار ، من شعراء العرب في جاهليتها مع مَنْ

أدركه الإسلام ، فسمي مخضرماً ، فإنهم دخلوا مع من تقدّم ، فسمّوا الفحول ، وقدِّموا على تقدّم أشعارهم في الجودة ، فإن كان بعضهم أقدم من بعض وهم على ما بيّنّا من أسمائهم ومراتبهم على الولاء :

فأولهم امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن ثور ، وهو كندة .

والنابغة الذبياني : زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذُبيان .

وزهير بن أبي سلمى : واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح بن قرط بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هُذْمة بن لاطم بن عثمان بن عمرو بن أُدّ .

والأعشي : وهو أعشى وائل ، واسمه : ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

وعبيد بن الأبرص بن حنتم بن عامر بن مالك بن زهير بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد .

ومهلهل : وهو امرؤ القيس بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل .

وعلقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس بن عبد بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .

والحارث بن حِلّزة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك بن عبد بن سعد بن جشم بن عامر بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن بكر بن

وائل .

وعمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب بن سعد بن زهير بن جُشم بن بكر .

وسعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن علي بن بكر بن وائل .

والأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك .

وسويد بن أبي كاهل بن حارثة بن حسل بن مالك بن عبد بن سعد بن جشم بن ذبيان .

وأوس بن حجر بن مالك بن حزن بن عمرو بن خلف بن نمير بن أُسَيْد بن عمرو بن تميم بن مر .

وذو الأصبع العدواني : حرثان بن حارث بن محرث بن ثعلبة بن سيّار بن ربيعة بن هبيرة بن ثعلبة بن ظرب بن عمرو بن عبّاد بن بكر بن يشكر بن عَدْوان ، وهو الحارث بن عمرو بن قيس عيلان .

وبشر بن أبي خازم ، وهو عمرو بن عوف بن حنش بن ناشرة بن أسامة بن والبة .

وعنترة بن شدّاد بن معاوية بن نزار بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قُطيعة بن عبس بن بغيض .

وعبدة بن الطبيب التميمي .

والمتلمّس : هو جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد بن دوفان بن حرب بن وهب بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار .

وأبو داؤد الأيادي : وهو حوثرة بن الحارث بن الحجّاج .

والمرقش الأصغر : وهو ربيعة بن معاوية بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

والمسيب بن عَلَس بن عمرو بن قضاعة بن عمرو بن زيد بن ثعلبة بن دعدي بن مالك بن جشم بن مالك بن جُماعة بن جُليّ .

وعدي بن زيد بن حمّاد بن زيد بن أيوب بن محروف بن عامر بن عُصَيّة بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم .

وسلامة بن جندل بن عبد عمرو بن عبد الحارث ، وهو مُقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم .

وسُحَيْم بن وثيل بن عمرو بن كرز بن وهيب بن حميري بن رياح بن يربوع بن حنظلة .

والجميح الأسدي : وهو منقذ بن الطماح بن قيس بن طريف بن عمرو بن قُعَيْن .

وحاتم الطائي : وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي بن أخزم بن ربيعة بن جَرْوَل بن ثعل بن عمرو بن الغوث .

وطُفَيْل الخيل : وهو طفيل بن عوف بن خليف بن ضبيس بن مالك بن سعد بن عوف بن هِلاّن بن غنم بن غني .

والسفّاح : وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم بن أُسامة بن مالك بن بكر بن حُبَيِّب بن غنم بن تغلب .

وتأبّط شراً ، وهو ثابت بن جابر بن سفيان بن عدي بن كعب بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان .

وابن المضلّل الأسدي ، وهو جلد بن قيس بن مالك بن منقذ .

وكعب الأمثال الغنويّ : وهو كعب بن سعد بن علقمة بن ربيعة بن زيد بن أبي مليل بن رفاعة .

ومروان القَرَظ بن زِنْباع بن جذيمة بن رواحة بن قطيعة بن عبس .

ودريد بن الصّمة بن الحارث بن بكر بن علقة بن جُداعة بن عوف بن جشم بن معاوية بن بكر .

وأمية بن أبي الصلت ، وهو عبد الله بن ربيعة بن عُقْدة بن غِيَرة بن عوف بن قسي ، وهو ثقيف .

والأفْوَه الأودي : وهو صلاة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبّه بن أود بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج .

وعمرو بن قمئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

وضابىء بن الحارث بن أرطاة بن شهاب بن عبيد بن حلول بن قيس بن حنظلة .

وخُفاف ابن ندبة : وندبة أمه ، وأبوه عمير بن الحارث بن عمرو بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عُصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بُهثة بن سُليم .

والمتنخّل الهذلي : وهو مالك بن غنم بن سويد بن حُبْشي بن خُناعة بن الديل بن عادية بن صعصعة بن كعب بن طابخة بن لحيان بن هذيل .

والذهاب الفحل : وهو مالك بن جندل بن مسلمة بن مجمّع بن ضبيعة بن عجل .

وعُرْوة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان بن عوذ بن غالب بن قطيعة .

والحارث بن عُباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، وهو فارس النعامة .

وأنس بن مدرك بن عمرو بن سعد بن عوف بن العتيك بن حارثة بن عامر بن تيم الله بن مبشّر بن أكلب بن ربيعة بن عِفْرس بن حَلْف بن خثعم .

والمنخّل بن مسعود بن أفلت بن قطن بن سوادة بن مالك بن ثعلبة بن غنم بن حبيب بن كعب .

وأشْيَم بن شراحيل بن عبد رضى بن عبد عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

والحارث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيض بن مرة بن

عوف بن سعد بن ذبيان .

وصفوان بن حصين بن مالك بن رفاعة بن سالم بن عبيد بن سعد العنزيّ .

والسموأل بن عاديا : وهو ينسب إلى غسّان ، فيقول بعضهم أنه يهودي ينسب إلى يهوذا .

وعمرو بن الأهتم بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن عمرو بن كعب بن سعد .

ومطرود بن كعب بن عُرْفطة بن النافذ بن مرة بن تيم بن سعد بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي .

وأوس بن غلفاء بن فقنط بن معبد بن عامر بن يمامة .

وحصين بن الحمام بن ربيعة بن حرام بن واثلة بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن عامر بن صعصعة .

والركّاض الأسدي ، وهو ركّاض بن أباق بن بديل أحد بني دُبَيْر .

وسويد بن كراع العكليّ .

والحويدرة : واسمه قطبة بن أوس بن محصن بن جرول بن حبيب الأعظم بن عبد العزى بن خزيمة بن رزام بن مازن بن ثعلبة .

وأعشى بني أسد : وهو قيس بن بجرة بن منقذ .

وابن الزبعري السهمي : وهو عبد الله بن قيس بن عدي بن

سعد بن سهم من قريش .

وابن دبابة الفقيم : وهو بكير بن بريد بن أنس بن امرىء القيس .

وسويد بن سلامة بن مريج بن قيس بن عمرو بن قطن بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة .

وقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس .

ومقيس بن صبابة أخو بني كلب بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن كنانة ، أدركه الإسلام ، وأسلم ، ثم ارتد ، فقتل يوم فتح مكة كافراً .

والمسيب بن الرفيل بن حارثة بن حيّان بن قيس بن أبي جابر بن زهير بن جناب بن هبل الكلبيّ .

والبرّاض بن قيس بن رافع بن قيس بن جُديّ بن ضمرة الكناني .

وسبرة بن عمرو بن أهنان بن دثار بن فقعس .

وشافع بن عبد العزى الضمري .

وسراقة بن مالك بن جعشم المدْلجيّ .

ومصروف : واسمه عمرو بن قيس بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهْل .

وابن رميلة الضبّيّ .

وقيس بن مسعود بن عامر .

ومرداس بن أبي عامر بن جارية بن عبد بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة .

ومن شعراء الجاهلية الفحول المتقدمين الذين أدركوا الإسلام :

النابغة الجعدي : واسمه قيس بن عبد الله بن موسى بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن عامر بن صعصعة .

وتميم بن أُبيّ بن مقبل بن عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعة .

وكعب بن زهير بن أبي سلمى .

وعبد الله بن عامر بن كرب الكندي .

وأبو سمّال الأسدي : واسمه شمعان بن هبيرة بن مساحق .

وزيد بن مهلهل : وهو زيد الخيل بن يزيد بن منهب بن عبد رضى بن المحلس بن ثور بن عدي بن كنانة بن مالك بن نبهان بن عمرو بن الغوث .

والحطيئة : واسمه جرول بن أوس بن مالك بن جويّة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قُطيعة بن عبس .

وضرار بن الخطاب بن مرداس بن كبير بن عمرو المحاربي .

والشمّاخ بن ضرار بن سنان بن أمية بن عمرو بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة .

وأبو ذؤيْب الهذلي : وهو خويلد بن خالد بن محرّث بن ربيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن تميم بن سعد بن هذيل .

وأبو كبير الهذلي : وهو عامر بن الحُلَيس .

والحرث بن عمرو بن جرجة بن يربوع بن فزارة .

وعبد بني الحسحاس : وهو سحيم بن هند بن سفين بن ثعلبة بن ذودان بن أسد بن خزيمة .

« ١٧ »

أيام داحس والغبراء (١)
بين عبس وذبيان

سبب الحادثة : أن قيس بن زهير العبسي قصد المدينة ليتجهز ويستعد لقتال رجل اسمه : عامر كان قد قتل أباه وعزم على أخذ الثأر من قاتل أبيه . فتوجه قيس ـ أول ما توجه ـ إلى رجل اسمه : أحيحة بن الجُلاح ليشتري منه درعاً وصفوها له بالجودة والإتقان فاشتراها قيس منه بابن لبون (جمل صغير) وتسمى تلك الدرع (ذات الحواشي) ووهب أحيحة أدراعاً غيرها . ورجع قيس إلى قومه وهو مجهز بكل ما يساعده على الأخذ بثأره . ثم ذهب قيس إلى الربيع بن

---

(١) داحس : اسم حصان . والغبراء : اسم فرس .

زياد العبسي وطلب منه أن يساعده على عدوِهِ والأخذ بثأره فأجابه الربيع على طلبه .

ولما أراد قيس فراق الربيع ، نظر الربيع إلى حقيبته وسأله : ما في حقيبتك ؟ قال شيء عجيب لو رأيته لخفت منه ! فأناخ قيس جمله وأخرج الدرع من الحقيبة فرأها الربيع فأعجبته كثيراً ولبسها فكانت في طوله فلم يعُد يرجعها إلى قيس وكلّما حاول قيس أن يقنعه في أن يردها إليه فلم يردها وانصرف قيس عنه وهو عازم على أن لا يبقيها للربيع . . وبعد انصرافه عنه أخذ يرسل إليه الرسل ، رسولاً بعد رسول . ولجّ قيس في طلبها ولجّ الربيع بالاحتفاظ بها لنفسه . . ولما طالت الأيام بغير فائدة بعث قيس أهله إلى مكة وأقام ينتظر . .

ثم إن الربيع سيّر إبله (جماله) وأمواله إلى مرعى كثير الكلأ (العشب) وأمر أهله أن يرحلو وركب هو فرسه وذهب إلى المنزل فبلغ الخبر قيساً فجمع أهله وأخوته وتوجهوا نحو أهل الربيع ولما وصل قيس إلى أهل الربيع حجز أم الربيع فاطمة بنت الخرشب وحجز زوجته فقالت فاطمة أم الربيع : ماذا تريد منّا يا قيس ؟ فقال : أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن بها لأن الربيع أخذ درعي ولم يرجعها إليّ قالت أم الربيع : أتركنا وأنا أضمن لك درعك فتركهن قيس وذهبن في سبيلهن . . ولما أن جاءت إلى ابنها حكت له ما حدث معها مع قيس وأنها تعهدت له بأن ترجع إليه الدرع . . فلم يستجب الربيع لكلام أمه وحلف يميناً أن لا يرد الدرع إلى قيس . . فأرسلت أم الربيع إلى قيس وأعلمته أن ابنها لم يستجب لطلبها ولا يرد الدرع أبداً . . فأغار قيس على جمال الربيع وأخذ منها أربعمائة جمل وساقها إلى مكة فباعها

واشترى بها خيلاً ، ولما علم الربيع تبعه فلم يلحقه ، وكان من بين الخيل التي اشتراها قيس : داحس والغبراء . .

وقالوا : إن قيساً وجّه حصانه (داحساً) على فرس له فحملت ثم ولدت مهرة سماها (الغبراء) . . وقد أقام قيس بمكة وهو يحب المفاخرة بنفسه وبما يعود إليه وأخذ بمكة يتفاخر مع أهلها . وفي جملة ما قال لهم : نحّوا كعبتكم عنّا وحرمكم وهاتوا ما شئتم . . فقال له عبد الله بن جدعان : إذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن فبم نفاخرك ؟ . . وأخيراً ملّ قيس المفاخرة وعزم على الرحيل من مكة . . وأنست قريش من رحيل قيس عنهم لأنهم كانوا قد كرهوا مفاخرته . . .

وقد قال قيس لإخوته : إرحلوا بنا من عند هؤلاء القوم وإلّا عظم الشرّ بيننا وبينهم واتجهوا نحو بني بدر فإنهم أكفاؤنا في الحسب وبنو عمنا في النسب وأشراف قومنا في الكرم . والربيع ـ عندئذٍ ـ لا يستطيع أن يصل إلينا ويتناولنا ونحن عندهم . فجاء قيس وأخوته إلى بني بدر وأقاموا عندهم .

وقال وهو متوجه إليهم :

أسير إلى بني بدر بأمرٍ ... همُ فيه علينا بالخيار

فإن قبلوا الجوار فخير قوم ... وإن كرهوا الجوار فغير عار

أتينا الحارث الخبر بن كعب ... بنجران وأي لجا بجار

فجاورنا الذين إذا أتاهم ... غريب حلّ في سعة القرار

وصل قيس إلى بني بدر ونزل عند حُذيفة فأجاره وأكرمه وأقام

فيهم مسروراً محترماً . وكان مع قيس وإخوته خيل لم يكن في العرب مثلها . وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله ويحسده عليها ويكتم ذلك في نفسه . . وعلم الربيع بإقامة قيس عند بني بدر فغضب ونقم عليهم وبعث إليهم بهذه الأبيات :

ألا أبلغ بني بدر رسولا ... على ما كان من شنأ ووتر
بأني لم أزل لكمُ صديقا ... أدافع عن فزارة كل أمر
أسالم سلمكم وأرد عنكم ... فوارس أهل نجران وحجر
فألجأتم أخا الغدرات قيسا ... فقد أفعمتمُ إيغار صدري
فحسبي من حذيفة ضم قيس ... وكان البدء من حمل بن بدر
فإما ترجعوا أرجع إليكم ... وإن تأبوا فقد أوسعت عذري

فلم يستجب بنو بدر لنداء الربيع وأصروا على جوار قيس وحمايته فغضب الربيع أشد الغضب من بني بدر وغضبت قبيلته عبس لغضبه . .

وكان حذيفة كره قيساً وأراد إخراجه لكنه لم يجد عذراً لطرده ولا مبرراً فسكت عنه على مضض !! .

وعزم قيس على الذهاب لمكة من أجل العمرة وأخبر أهله وأصحابه وقال لهم : إني قد عزمت على العمرة وأوصيكم بأن لا تتحرشوا بحذيفة وابتعدوا عنه وإن تحرش هو فيكم وأسمعكم كلاماً لا ترضونه فتحملوا كل ما يكون منه بالنسبة إليكم واصبروا على ذلك حتى أرجع من مكة لأني قد عرفت الشر في وجهه . وكان قيس ذا رأي لا يخطىء فيما يريده ، وقد عرف من تصرفات حذيفة أنه يحسده على

خيله ويتمنى أن يحصل على شيء من أفراسه الجياد !! وحدث أن فتى من عبس يقال له : ورد بن مالك : أتى حذيفة وجلس إلى جنبه وتحدثوا في شؤون الخيل فقال ورد لحذيفة لو أخذت من خيل قيس فحلاً يكون أصلاً لخيلك . . فأجابه حذيفة : إن خيلي خير من خيل قيس ، واشتدّ الحوار بين ورد وبين حذيفة وانتهى الحوار بأن تراهنا على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفة والرهن عشرة أذواد (الجمال) . . ثم قصد ورد قيساً وهو في مكة فحكى له ما كان بينه وبين حذيفة وأنهما تراهنا على عشرة أذواد . . فقال قيس لورد : أراك ورطتني مع بني بدر وتورطت أنت معي وحذيفة هذا رجل ظالم لا تطيب نفسه إلاّ أن ينتقم ونحن قوم لا ننام على ضيم !! .

ورجع قيس من العمرة في مكة وجمع قومه وركب إلى حذيفة وطلب منه أن يفك الرهن الذي جرى بينه وبين ورد فأبى حذيفة ثم ذهب إلى حذيفة جماعة من فزارة وعبس وطلبوا منه أن يفك الرهن فلم يقبل . وقال : إن أقرّ قيس أن السبق لي انتهى كل شيء بيننا وإلاّ لا أفك الرهن !! .

وقال قيس لحذيفة : علامَ تراهنني ؟ قال حذيفة : على فرسيك داحس والغبراء وفرسي : الخطار والحنفاء .

وضمروا الخيل وحشدوا ولبسوا السلاح وأعدوا الأمناء على إرسال الخيل . . وأقام حذيفة رجلاً من بني أسد في الطريق وأمره أن يلقي داحساً في أسفل الوادي إن مرّ به سابقاً . فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بينا والناس ينظرون إليه . وقيس وحذيفة ، كل واقف على رأس قومه يراقبون السبق وينتظرون النتيجة فلما هبط داحس

في الوادي عارضه الأسدي فلطم وجهه فألقاه في الماء فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلاّ وقد فاتته الخيل !! وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة ثم سقطت الحنفاء وبقي الخطار والغبراء فكانا إذا كانت الأرض وعرة يتقدم الخطار على الغبراء وإن كانت الأرض سهلة تتقدم الغبراء على الخطار . . وفي آخر الشوط تقدمت الغبراء على الخطار ، وفازت بالسبق . .

ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله فأخبر الغلام قيساً بما صنع به الأسدي فأنكر حذيفة ذلك وادعى السبق ظالماً معتدياً ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين تآمروا على داحس بأمر من حذيفة واختلفوا فيما بينهم لأنهم حبسوا داحساً وعرقلوا مسيرته ولم يتركوه سباقاً على رسله !! .

وبلغ الربيع بن زياد خبرهم فسره ذلك كثيراً وقال لأصحابه : هلك والله قيس . وكأني به إن نجا من حذيفة ولم يقتله أتانا وطلب منّا الجوار . . أما والله لئن فعل وجاءنا لا بدّ أن نجيره ونضمه إلينا . .

ثم إن الأسدي المأمور بالمؤامرة على حبس داحس جاء إلى قيس نادماً على حبس داحس معترفاً بما صنع فلعنه وسبه حذيفة على هذا الاعتراف الذي فضح حذيفة ! .

ثم إن بني بدر أساؤوا إلى قيس وأخوته وآذوهم بالكلام فعاتبهم قيس فلم يزدادوا إلاّ بغياً عليه وإيذاءً له .

ثم إن قيساً وحذيفة كادت تنشب معركة بينهما لولا تدخل الناس

ومنعاهما من الإلتحام . وقد ظهر للناس جميعاً بغي حذيفة وظلمه لقيس .

ثم ألح حذيفة في طلب الرهان لأنه اعتبر أنه فاز بالسبق فأرسل ابنه ندبة إلى قيس يطالبه به فلما أبلغه الرسالة من أبيه طعنه فقتله ، وعادت الفرس إلى أبيه ولم يكن عليها ندبة فأيقن أن ابنه مقتول ، وكان قيس قد رحل مع قومه كلهم . . فصاح حذيفة في الناس وركب مع جماعة من فرسانه وأتى منازل عبس فرأها خالية ورأى ابنه قتيلاً فنزل إليه وقبل بين عينيه ودفنوه .

وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً في فزارة وهو نازل فيهم فأرسل إليه قيس : أني قد قتلت ندبة بن حذيفة ورحلت فالتحق بنا وإلاّ قتلت فقال مالك : إن ذنب قيس عليه ، ولم يرحل . . فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العودة إليه والمقام معه إذ هم عشيرة وأهل فلم يجبه ولم يمنعه . وبقي مفكراً في ذلك . . وبعد هذا قتل بنو بدر مالك بن زهير أخا قيس فبلغ مقتله بني عبس والربيع بن زياد فاشتد ذلك عليهم . . وأرسل الربيع إلى قيس عيناً يأتيه بخبره فسمعه يقول :

أينجو بنو بدر بمقتل مالك ... ويخذلنا في النائبات ربيع
وكان زياد قبله يتقي به ... من الدهر إن يوم ألمّ فظيع
فقل لربيع يحتذي فعل شيخه ... وما الناس إلاّ حافظ ومضيع
وإلاّ فما لي في البلاد إقامة ... وأمر بني بدر علي جميع

فرحل الرجل إلى الربيع فأخبره فبكى الربيع على مالك وقال :

منع الرقاد فما أغمض ساعة ... جزعاً من الخبر العظيم الساري

أفبعد مقتل مالك بن زهير يرجو النساء عواقب الأطهار

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندبنه ويقمن قبل تبلج الأسحار

فسمعها قيس فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهو يصلح سلاحه فنزل إليه قيس وقام الربيع فاعتنقا وبكيا وأظهرا الجزع لمصاب مالك ولقي القوم بعضهم بعضاً فنزلوا فقال قيس للربيع : إنه لم يهرب منك من لجأ إليك ولم يستغن عنك من استعان بك ولقد كان لك شرٌّ يوميّ فليكن لي خير يوميك وإنما أنا بقومي وقومي لك وقد أصاب القوم مالكاً ولست أهم بسوء لأني إن حاربت بني بدر نصرتهم بنو ذبيان وإن حاربتني خذلني بنو عبس إلاّ أن تجمعهم عليّ وأنا والقوم في الدماء سواء ، قتلت ابنهم وقتلوا أخي فإن نصرتني طمعت فيهم وإن خذلتني طمعوا فيّ . . فقال الربيع : يا قيس إنه لا ينفعني أن أرى لك من الفضل ما أراه لي . ولا ينفعك أن ترى لي ما لا أراه لك . وقد مال علي قتل مالك وأنت ظالم ومَظلوم . ظلموك في جوادك وظلمتهم في دمائهم . وقتلوا أخاك بابنهم . . وأحب شيء إليّ مسالمتهم ونخلو لِحرب هوازن . .

وبعث قيس إلى أهله وأصحابه فجاؤوا ونزلوا مع الربيع وأنشدهم عنترة بن شداد مرثيته في مالك :

فللّه عيناً من رأى مثل مالك عقيرة قوم أن جرى فرسان

فليتهما لم يطعما الدهر بعدها وليتهما لم يجمعا لرهان

وليتهما ماتا جميعاً ببلدة وأخطاهما قيس فلا يريان

لقـد جلبـا حلبـا لمصـرع مـالـك	وكـان كـريمـاً مـاجـداً لهجـان
وكنا لدى الهيجاء نحمي نساءنا	ونضـرب عنـد الكـرب كـل بنـان
فسوف ترى إن كنت بعدك باقياً	وأمكننـي دهـري وطـول زمـانـي
فـأقـم حقّـاً لـو بقيـت لنظـرة	لقـرّت بهـا عينـاك حيـن تـرانـي

وبلـغ حـذيفـة أن الـربيـع وقيسـاً اتفقـا فشـق ذلـك عليـه واستعـد للبلاء . . ثم اتفق الربيع وقيس وجمع حذيفة قومه وتعاقدوا على عبس . . وجمع الربيع وقيس قومهما واستعدوا للحرب فأغارت فزارة علـى بنـي عبـس فغنمـوا نعمـاً وأسـروا وقتلـوا رجـالاً فحميـت عبـس واجتمعت للغارة والتقوا على ماء يقال له : (الغدق) وهي أول وقعة كانت بينهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل عوف بن يزيد . قتله جندب بن خلف العبسي وانهزمت فزارة بعد أن فتك بهم فتكاً شديداً . . وأسر الربيع بن زياد حذيفة بن بدر . وكان حر بن الحارث العبسي قد نذر إن قـدر علـى حـذيفـة أن يضـربـه بـالسيـف ، وكـان لـه سيـف قـاطـع يسمـى (الأصـرم) ولمـا رآه عنـد الـربيـع أراد ضـربـه بـالسيـف وفـاء بنذره . . فأرسل الربيع إلى امرأته ونهوه عن قتله وحذروه عاقبة ذلك فأبى إلاّ ضربه فوضعوا عليه الرجال فضربه فلم يصنع السيف شيئاً وبقي حذيفة أسيراً . .

فاجتمعت غطفان وسعوا بالصلح فاصطلحوا على أن يهدروا دم ابن حذيفة بدم مالك بن زهير ويعطوا حذيفة عن ضربته التي ضربه حر مائتين من الإبل وأن يجعلوها عشاراً كلها وأربعة عبيد وأهدر حذيفة دم من قتل من فزارة في الموقعة وأطلق من الأسر . .

ثم كانت محاولات كثيرة للصلح بينهما تصلح حيناً وتفسد أحياناً . وأغار حذيفة على عبس وأغارت عبس على فزارة وعظم الشر بينهما . . ثم سار قيس إلى فزارة فلقي منهم جمعاً ، فيهم مالك بن بدر فقتله قيس وانهزمت فزارة فأخذ حينئذٍ حذيفة ولدي ريّان فقتلهما . .

ولما قتل مالك والغلامان اشتدت الحرب بين الفريقين وأكثر الخسارة في فزارة وحلفائها . . . وفي بعض الأيام التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ودامت الحرب بينهم إلى آخر النهار . . وأبصر ريان بن الأسلع زيد بن حذيفة فحمل عليه وقتله . وانهزمت فزارة وذبيان وأُدرك الحارث بن بدر فقتل . . ورجعت عبس سالمة لم يصب منها أحد . . . ولما قتل زيد والحارث جمع حذيفة بني ذبيان وبعث إلى أشجع وأسد بن خزيمة فجمعهم فبلغ ذلك بني عبس فضموا أطرافهم . وأشار قيس بن زهير بالسبق إلى ماء العقيقة ففعلوا ذلك . . . وسار حذيفة في جموعه إلى عبس ومشى الوسطاء في الصلح بين الفريقين فحلف حذيفة أنه لا يصلح حتى يشرب من ماء العقيقة الذي احتله قيس فأرسل إليه قيس ماء في وعاء من ماء العقيقة حتى يبر قسمه . . . واصطلحوا على أن تعطي بنو عبس حذيفة ديات من قتل له ووضعوا الرهائن عنده حتى يجمعوا الديات وهي عشر . وكانت الرهائن ابناً لقيس بن زهير وابناً للربيع بن زياد فوضعوا أحدهما عند قطبة بن سنان والآخر عند رجل من بكر بن وائل أعمى .

فعيّر بعض الناس حذيفة بقبول الدية فحضر هو وأخوه حَمَل عند قطبة بن سنان والبكري وقالا : إدفعا إلينا الغلامين لنكسوهما ونسرحهما إلى أهلهما . أما قطبة فدفع إليه الغلام الذي عنده وهو ابن

قيس وأما البكري فامتنع من تسليم من عنده . فلما أخذا ابن قيس عادا فلقيا في الطريق ابناً لعمارة بن زياد العبسي وابن عم له فأخذاهما وقتلاهما مع ابن قيس . . . فلما بلغ ذلك بني عبس أخذهم الغضب واشتروا السلاح ثم خرج قيس في جماعة فلقوا ابناً لحذيفة ومعه فوارس من ذبيان فقتلوهم . . فجمع حذيفة المقاتلين وسار إلى عبس وهم على ماء يقال له (عُراعر) فاقتتلوا وكان الظفر إلى فزارة ورجعت سالمة . . وأصر حذيفة على الحرب وكرهها أخوه حَمَل وقال لأخيه في الصلح فلم يجب إلى ذلك . وجمع الجموع من أسد وذبيان وسائر بطون غطفان وتوجه نحو بني عبس فاجتمعت بنو عبس وتشاوروا في أمرهم فقال لهم قيس بن زهير : إنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به وليس لبني بدر إلاّ دماؤكم والقضاء عليكم وأما من سواهم فلا يريدون غير الأموال والغنيمة . والرأي أننا نترك الأموال بمكانها ونترك معها فارسين على داحس وعلى فرس آخر جواد ونرحل نحن ونكون على مقربة من المال فإذا جاء القوم إلى الأموال جاءنا الفارسان فأعلمانا وصول القوم فإن القوم حينئذٍ يشتغلون بالنهب وجمع الأموال . وإن نصحهم ذو رأي ونهاهم عن ذلك فإن العامة تخالفهم ويشتغل كل إنسان بالإحتفاظ بما نهب وغنم ويعلقون أسلحتهم على ظهور الإبل ويأمنون فنعود نحن إليهم عند وصول الفارسين فنباغتهم وهم على حال تشتت وتفرّق فلا يكون لأحدهم إلاّ تخليص نفسه بما غنم !! .

وهكذا كان ، جاء حذيفة ومن معه فاشتغلوا بالنهب فنهاهم حذيفة وغيره فلم يقبلوا منهم وكانوا على الحال التي وصفها قيس وعاد بنو عبس وقد تفرقت أسد وغيرهم وبقي بنو فزارة في آخر الناس

فحملوا عليهم من جميع الجوانب فقتل مالك بن سبيع التغلبي سيد غطفان وانهزمت فزارة وحذيفة معهم وبقي معه خمسة فوارس جدّوا في الهرب معه .. وعرف فيه بنو عبس فلحقه قيس بن زهير والربيع بن زياد وقرواش بن عمرو وريان بن الأسلع الذي قتل حذيفة ولديه وتبعوا أثرهم في الليل .. وقال قيس : كأني بالقوم وقد وردوا جفر الهباءة ونزلوا فيه فمشوا الليلة كلها حتى أدركوهم مع طلوع الشمس في جفر الهباءة في الماء فحاولوا أن يجمعوا خيولهم وأنفسهم فحال قيس وأصحابه بينهم وبين الخيول .. وكان مع حذيفة في الجفر أخوه حَمَل بن بدر وابنه حصن وغيرهم فهجم عليهم قيس والربيع ومن معهما وهم ينادون لبيكم لبيكم يعني أنهم يجيبون نداء الصبيان الذين قتلهم حذيفة حين كانوا ينادون : يا أبتاه ـ يا أبتاه .. فقال لهم قيس : يا بني بكر كيف رأيتم عاقبة البغي ؟ فناشدوهم الله والرحم فلم يقبلوا منهم ودار قرواش بن عمرو حتى وقف خلف ظهر حذيفة فضربه وقتله وقتلوا حَمَلا أخاه وقطعوا رأسيهما واستبقوا حصن بن حذيفة لصغره . وكان عدد من قتل في هذه الوقعة ما يزيد على أربعمائة قتيل وقتل من عبس ما يزيد على عشرين قتيلاً وكانت فزارة تسمي هذه الوقعة : البوار ..

وقال قيس من قصيدة طويلة :

فلولا ظلمه ما زلت أبكي ... عليه الدهر ما طلع النجوم

ولكن الفتى حَمَل بن بدر ... بغىٰ والبغي مرتعه وخيم

وقالوا : إن عبساً ندمت على ما فعلت يوم الهباءة ولام بعضهم

بعضاً فاجتمعت فزارة إلى سنان بن أبي حارثة المرّي وشكوا إليه ما نزل بهم فأعظمه وذم عبساً وعزم على أن يجمع العرب ويأخذ بثأر بني بدر وفزارة وفرق رسله إلى القبائل فاجتمع من العرب خلق كثير لا يحصون ونهى أصحابه عن التعرض إلى الأموال والغنيمة وأمرهم بالصبر . .

وساروا إلى بني عبس فلما عرف بنو عبس قال قيس : الرأي أننا لا نلقاهم فإننا قد أجرينا منهم دماء غزيرة وقد رأوا ما نالهم بالأمس بانشغالهم بالنهب والأموال فهم لا يتعرضون هذه المرة إلى الأموال . والذي ينبغي أن نفعله أن نرسل الظعائن والأموال إلى بني عامر ويبقى أولو القوة والجلد على ظهور الخيل ونماطلهم القتال فإن أبوا إلاّ القتال كنا قد أحرزنا أهلينا وأموالنا وقاتلناهم وصبرنا لهم فإن ظفرنا فهو الذي نريد وإن خسرنا الحرب كنا قد خفظنا أموالنا ولحقنا بها ففعلوا ذلك . .

وسارت ذبيان ومن معها فلحقوا بني عبس على (ذات الجراجر) فاقتتلوا طوال يومهم قتالاً شديداً وافترقوا ولما كان الغد عادوا إلى اللقاء فاقتتلوا أشد من اليوم الأول ، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عنترة بن شداد . .

ولما رأى الناس شدة القتال وكثرة القتلى لاموا سنان بن أبي حارثة على عدم موافقته على الصلح وتشاءموا منه وأشاروا عليه بحقن الدماء ومحاولة الصلح فلم يقبل وأراد استمرار الحرب في اليوم الثالث فلما رأى فتور أصحابه وركونهم إلى السلم رحل عائداً إلى مكانه فلما عاد سنان رحل قيس وبنو عبس إلى بني شيبان بن بكر وجاوروهم وبقوا معهم مدة . فرأى قيس من غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأخذ

أموالهم فرحلوا عنهم . فتبعهم جماعة من شيبان فقابلهم بنو عبس واقتتلوا فانهزمت شيبان وتابعت عبس مسيرها إلى (هجر) ليحالفوا ملكهم وهو معاوية بن الحارث الكندي . . فعزم معاوية على الغارة عليهم ليلاً فبلغهم الخبر فرحلوا عنه مجدين وسار معاوية مجداً في أثرهم فتاه بهم الدليل عمداً كي لا يدركوا عبساً إلاّ وهم قد أنهكهم وأنهك دوابهم التعب فإذا وصلوا وصلوها وهم لا يستطيعون الحرب أو المقاومة ، وفعلاً لحقوهم بمكان يسمى : (الفروق) فاقتتلوا قتالاً شديداً وانتهت المعركة بهزيمة معاوية وأهل (هجر) وتبعتهم عبس فأخذت من أموالهم وقتلوا منهم ما أرادوا . وسار قيس على رسله إلى حيث يريد فنزل مع قومه بمكان يقال له : (عراعر) عليه حي من كلب فركبوا ليقاتلوا بني عبس فبرز الربيع وطلب رئيسهم واسمه مسعود بن مصاد فبرز إليه واقتتلا حتى سقطا إلى الأرض وأراد مسعود أن يقتل الربيع فانكشفت بيضة الدرع عن رقبته فرماه رجل من بني عبس بسهم فقتله فقطع الربيع رأس مسعود وحملت عبس على كلب ورأس مسعود محمول على الرمح فانهزمت كلب حين رأت رأس قائدها ورئيسها على الرمح وغنمت عبس أموالهم وذراريهم .

ثم سارت عبس إلى اليمامة فحالفت أهلها من بني حنيفة وأقامت عبس بينهم ثلاث سنين . فلم يحسن بنو حليفة جوارهم وضيقوا عليهم فرحلوا عنهم . . وقد تفرق كثير منهم في هذه المرحلة وقتل منهم وهلكت دوابهم لأنّ أكثر العرب أصبح موتوراً منهم .

وبينا هم في تلك الحيرة وذاك التشتيت راسلهم ، بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم وذلك ليستعينوا بعبس على حرب بني

تميم فقبل بنو عبس وجاوروهم . . .

ولما حلت المشاكل بين ضبة وتميم تغيرت سياسة ضبة مع عبس وأخذوا في مضايقتهم وأرادوا هلاكهم فاضطرت عبس لمحاربة ضبة فحاربتها وظفرت بها وغنمت من أموال ضبة غنائم كثيرة !! .

ثم سار بنو عبس إلى بني عامر وحالفوا الأحوص بن جعفر بن كلاب فسر بهم كثيراً ليقوى بهم على حرب بني تميم لأنه كان بلغه أن لقيط بن زرارة يريد غزو بني عامر والأخذ بثأر أخيه معبد . . فأقامت عبس عند بني عامر فقصدتهم وكانت وقعة (شعب جبلة) وسنذكرها في صفحات قادمة . .

ثم إن غزوا بني عامر بن صعصعة وفيهم بنو عبس فاقتتلوا طويلاً ثم وانتهت بهزيمة عامر وأسر قرواش العبسي ، أسره بنو ذبيان ولم يعرفوه فلما قدموا به الحي عرفته امرأة منهم فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة فقتله !! .

ثم رحلت عبس عن عامر ونزلت بتيم الرباب فبغت تيم على عبس فاقتتلوا قتالاً شديداً وتكاثرت عليهم تيم فقتلوا من عبس مقتلة عظيمة . . ورحلت عبس وقد ملوا الحرب وقلت الرجال والأموال وهلكت المواشي . . . فقال لهم قيس : ما ترون ؟ قالوا : نرجع إلى إخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم .

فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف المري فسعى الحارث بالصلح وتم الصلح بين عبس وذبيان .

وقيل : إن قيس بن زهير لم يسر مع عبس إلى ذبيان وقال : لا

تراني غطفانية أبداً وقد قتلت أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمها . ولكني سأتوب إلى ربي فتنصر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عُمان فترهب بها زماناً فلقيه حوج بن مالك العبدي فعرفه فقتله وقال : لا رحمني الله إن رحمتك .

« ١٨ »

يوم شعب جبلة

كان لقيط بن زرارة قد عزم على غزو بني عامر بن صعصعة للأخذ بثأر أخيه معبد بن زرارة . وقد تقدم أنه مات أسيراً عند بني عامر . .

وبينما هو يتجهز للأخذ بالثأر جاءه خبر أن بني عبس وبني عامر عقدوا بينهم حلفاً . فاعتقد أنه لا طاقة له في مقابلة بني عبس وبني عامر فلم ير بداً من أن يتحالف مع كل من له ثأر عند هاتين القبيلتين ، فأرسل إلى كل قبيلة يهمها هذا الأمر وطلب منهم التظافر والتكاتف على حرب القبيلتين : عبس وعامر . .

فأجابته : أسد وغطفان وعمرو بن الجون ومعاوية بن الجون . وعقدوا بينهم حلفاً لغرض الإنتقام .

وساروا في هذا الإتجاه فعقد معاوية بن الجون الألوية فكان بنو أسد وبنو فزارة بلواء معاوية بن الجون وعقد لعمرو بن تميم مع حاجب بن زرارة وعقد للرباب مع حسان بن همام وعقد لجماعة من بطون تميم مع عمرو بن عُدَس . وعقد لحنظلة بأسرها مع لقيط بن زرارة وكان مع لقيط ابنته دختنوس فإنها كانت صاحبة تفكير ورأي كان يأخذها معه ليستعين برأيها وساروا في جماهير عظيمة وكلهم أمل في التغلب على عبس وعامر وإدراك ثأرهم فلقي لقيط في طريقه كرب بن صفوان بن الحباب السعدي وكان رجلاً شريفاً فقال له : ما منعك أن تسير معنا في غزاتنا ؟ قال : أنا مشغول في طلب إبل لي . قال : لا بل تريد أن تخبر عنا القوم ولا أتركك حتى تحلف أنك لا تخبرهم فحلف له . . ثم سار عنه وهو مغضب فلما قرب كرب من عامر أخذ خرقة فصرّ فيها حنظلة وشوكاً وتراباً وخرقتين يمانيتين وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلم بشيء أبداً ! ! .

فأخذها معاوية بن قُشَير فأتى بها الأحوص بن جعفر وأخبره : أن رجلاً ألقاها وهم يسقون فأخبر الأحوص قيس بن زهير العبسي وقال له : ما ترى في هذا الأمر ؟ فقال قيس : هذا من صنع الله لنا . هذا رجل قد أخذ عليه عهد على أن لا يتكلم فأخبركم أن أعداءكم قد غزوكم عدد التراب وأن شوكتهم شديدة وأما الحنظلة فهي رؤساء القوم وأما الخرقتان اليمانيتان فهما حيان من اليمن معهم وأما الخرقة الحمراء فهي الحاجب بن زرارة وأما الأحجار فهي عشر ليال يأتيكم القوم إليها . قد أنذرتكم فكونوا أحراراً واصبروا كما يصبر الأحرار الكرام .

قال الأحوص : فإنا فاعلون وآخذون برأيك فإنه لم تنزل بك شدة

إلاّ رأيت المخرج منها . قال قيس : فإذ قد رجعتم إلى رأيي فادخلو نعمكم (شعب جَبَلة) ثم لا تسقوها هذه الأيام ولا توردوها الماء أبداً . فإذا جاء القوم أخرجوا عليهم الإبل وانخسوها بالسيوف والرماح فتخرج مذاعير عطاشى فتشغلهم وتفرق جمعهم واخرجوا أنتم في آثارها واشفوا نفوسكم ففعلوا ما أشار به قيس !! .

وعاد كرب بن صفوان فصادف لقيطاً فقال له لقيط : هل أخبرت القوم ؟ فأعاد الحلف له وأنه لم يكلم أحداً منهم قط فتركه ومضى لسبيله فقالت دختنوس ابنة لقيط : ردني إلى أهلي ولا تعرضني لعبس وعامر فقد أخبرهم الرجل لا محالة فقال لها هذا كلام حمقاء وساءه كلامها وردها إلى أهلها !! .

وسار حتى نزل على فم الشعب بعساكر جرارة كثيرة الصواهل وليس لهم هم إلاّ الماء فقصدوه . .

ولما وصلوا قال قيس لقومه : اخرجوا عليهم الإبل ففعلوا وخرجت الإبل مذاعير عطاشى وهم وراءها فتفرقت تميم ومن معها وكانوا في الشعب فأبرزتهم الإبل إلى الصحراء من غير تعبئة وانشغلوا بأنفسهم ولم يجتمعوا بألويتهم . . وحملت ـ حينئذٍ ـ عليهم عبس وعامر فاقتتلوا قتالاً شديداً وكثرت القتلى في تميم وكان أول من قتل من رؤسائهم عمرو بن الجون وأسر معاوية بن الجون وعمرو بن عمرو بن عدس زوج دختنوس بنت لقيط وأسر حاجب بن زرارة . . وانحاز لقيط بن زرارة فدعا قومه وقد تفرقوا عنه فاجتمع إليه جماعة قليلة فحمل على عبس وعامر فقتل منهم ورجع وصاح : أنا لقيط . وحمل ثانية فقتل وجرح ورجع فكثر جمعه . وعثر فرسه وحمل عليه

عنترة بن شداد فطعنه طعنة قصم بها ظهره وضربه قيس بالسيف فألقاه في الأرض متخبطاً بدمه فذكر في تلك الساعة ابنته دختنوس وقال :

يا ليت شعري عنك دختنوسُ   إذا أتاها الخبر المرموس

أتحلق القرون أم تميس   لا بل تميس إنها عروس

ثم مات لقيط وتمت الهزيمة على تميم وغطفان ثم فدوا حاجباً بخمسمائة من الإبل وفدوا عمرو بن عمرو بمائتين من الإبل وعاد من سلم إلى أهله وقالت دختنوس ترثي أباها بقصائد منها :

عثر الأغر بخير خنـ   ـدف كهلها وشبابها

وأضرها لعدوها   وأفكها لرقابها

وقريعها ونجيبها   في المطبقات ونابها

ورئيسها عند الملو   ك وزين يوم خطابها

وأتمها نسباً إذا   رجعت إلى أنسابها

فرعي عمود للعشيـ   ـرة رافعاً لنصابها

وبعولها ويحوطها   ويذب عن أحسابها

ويطأ مواطن للعد   و فكاً لا يمشي بها

فعْل المدل من الأسو   د لحينها وثيابها

كالكوكب الدري في   سماء لا يخفى بها

عبث الأغر به وكـ   ـل منية لكتابها

فرت بنو أسد فرا   ر الطير عن أربابها

وهوازن أصحابهم   كالفأر في أذنابها

« ١٩ »

حاتم الطائي

حاتم بن عبد الله بن سعد بن امرىء القيس بن عدي وينتهي نسبه إلى يشجب بن يعرب بن قحطان .

ويكنى حاتم : أبا سنانة وأبا عدي . كني بسنانة لأنها أكبر أولاده وعدي هو أكبر أولاده من الذكور ، وقد أدركت سنانة وعدي الإسلام فأسلما .

وأم حاتم : عتبة بنت عمرو بن امرىء القيس بن عدي . وكانت ذات يسار وهي من أسخى الناس وأقراهم للضيف وكانت تبذل كل ما في يدها فلما رأى إخوتها إتلافها المال حجروا عليها ومنعوها مالها فبقيت دهراً لا يدفع إليها شيء منه وقد أشفق عليها أخوتها فأعطوها شيئاً من إبلها . فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها في كل سنة

تسألها ، فقالت لها دونك هذه الإبل فخذيها فوالله لقد عضني من الجوع ما لا أمنع معه سائلاً أبداً ثم أنشأت تقول :

لعمري لقد ما عض الجوع عضة ... فآليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائمي اليوم اعفني ... فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أو عذل من كان مانعاً
وماذا ترون اليوم إلاّ طبيعة ... فكيف بتركي يا ابن أمِّ الطبائعا

وكانت ابنة حاتم سنّانة من أجود نساء العرب وكان أبوها يعطيها قطعة من الإبل فتهبها وتعطيها كلها للناس . فقال لها أبوها حاتم : يا بنية إن القرينين إذا اجتمعا في المال أتلفاه فإما أن أعطي وتمسكي أو أمسك وتعطي فإنه لا يبقى على هذا شيء .

قال أحد الصحابة لما أتينا بسبايا طيء كانت فيه سنانة بنت حاتم طيء . وقد جاءت النبي (ص) فقالت : يا محمد هلك الوالد وغاب الرافد فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط . أنا بنت حاتم طيء فقال لها رسول الله (ص) : يا جارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق .

قال ابن الأعرابي : كان حاتم من شعراء العرب وكان جواداً يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله . وكان حيثما نزل عرف منزله وكان

مظفّراً إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب وإذا سئل وهب وإذا ضرب بالقداح فاز وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق وكان يقسم بالله أن لا يقتل واحد أمه وكان إذا أهل الشهر الأصم الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ينحر في كل يوم عشراً من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه فكان ممن يأتيه من الشعراء : الحطيئة وبشر بن أبي خازم . وذكروا أن أم حاتم أتيت وهي حبلى في المنام ، فقيل لها : أغلام سمح يقال له : حاتم أحب إليك أم عشرة غلمة كالناس . ليوث ساعة البأس ليسوا بأوغال ولا أنكاس ؟ فقالت : حاتم . فولدت حاتماً فلما ترعرع جعل يخرج طعامه فإن وجد من يأكله معه . أكل وإن لم يجد طرحه . فلما رأى أبوه يهلك طعامه قال له : إلحق بالإبل فخرج إليها ووهب له جارية وفرساً وفلوها فلما أتى الإبل أخذ يفتش على الناس فلا يجدهم ويأتي الطريق فلا يجد عليه أحداً وبينما هو ـ كذلك ـ إذ رأى ركباً على الطريق فأتاهم فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال تسألونني عن القرى وقد ترون الإبل وكانوا الذين رآهم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم والنابغة الذبياني وكانوا قاصدين النعمان . فنحر لهم ثلاثة من الإبل . فقال عبيد : إنما أردنا القرى اللبن وكانت تكفينا بكرة إذا كنت لا بد متكلفاً لنا شيئاً فقال حاتم : قد عرفت ولكني رأيت وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة فظننت أن البلدان غير واحدة فأردت أن يذكر كل واحد ما رأى إذا أتى قومه . . وقد قالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله . فقال حاتم : أردت أن أحسن إليكم فكان لكم الفضل عليّ . وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي عن آخرها أو تقدموا إليها فتقسموها ففعلوا فأصاب الرجل منهم تسعة وتسعين بعيراً ومضوا على

سفرهم إلى النعمان . وإن أبا حاتم سمع بما فعله ولده فأتاه وقال له : أين الإبل ؟ فقال : يا أبتي طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر لا يزال الرجل منهم يحمل بيت شعر أثنى به علينا عوضاً من إبلك !! فلما سمع أبوه ذلك . قال : أبإبلي فعلت ذلك ؟ قال : نعم ! .

قال : والله لا أساكنك أبداً فخرج أبوه بإهله وترك حاتماً ومعه جاريته وفرسه وفلوها ، فقال يذكر تحول أبيه عنه :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى	وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وشكلي شكل لا يقوم لمثله	من الناس إلا كل ذي نيقة[1] مثلي
وأجعل مالي دون عرضي جمة	لنفسي وأستغني بما كان من فضلي
وما سرني أن سار سعد بأهله	وأفردني في الدار ليس معي أهلي

قال يعقوب بن السكيت : مر الحكم بن أبي العاص بحاتم بن عبد الله فسأله الجوار بأرض طيء حتى يصير إلى الحيرة فأجاره ثم أمر حاتم بجزور فنحرت وطبخت فأكلوا ومع حاتم ابن عمه ملحان فلما فرغوا من الطعام طيبهم الحكم من طيبه . ثم مر حاتم بسعد بن حارثة فأتاه بنو لام فوضع حاتم سفرته وقال أطعموا حياكم الله . . فقالوا من هؤلاء الذين معك يا حاتم ؟ قال : هؤلاء جيراني ، قال له سعد : أنت تجير علينا في بلادنا ؟ قال له حاتم : أنا ابن عمكم ، فقالوا : لست هناك وأرادوا أن يفضحوه . فوثبوا إليه فتناول سعد حاتماً فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبة أنفه ووقع الشر حتى أصلحوا بينهم .

ثم قالوا لحاتم : بيننا وبينك سوق الحيرة فنماجدك ونضع

---

(١) النيقة : أرفع مكان في الجبل.

الرهن . ففعلوا ووضعوا تسعة أفراس رهناً على يدي رجل من كلب يقال له امرؤ القيس بن عدي وهو جد سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) . ووضع حاتم فرسه ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة وسمع بذلك إياس الطائي فخاف أن يعينهم النعمان بن المنذر ويقويهم بماله وسلطانه للمصاهرة التي بين النعمان وبينهم فجمع إياس قومه من بني حية وقال : يا بني حية إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن ينصحوا ابن عمكم حاتماً في مفاخرة . . فقال رجل من بني حية : عندي مائة ناقة سوداء ومائة ناقة حمراء . . وقال آخر : عندي عشرة حصن على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلاّ عيناه . وقال ثالث : قد علمتم أن أبي قد مات وترك إرثاً كثيراً فعلي كل خمر ولحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة . . ثم قام إياس فقال : علي مثل جميع ما أعطيتم كلكم ، هذا وحاتم لا يعلم شيئاً مما فعله إياس وقومه .

وذهب حاتم إلى مالك بن جبار وهو ابن عم له بالحيرة كان كثير المال فقال له حاتم : يا ابن عم أعني على مفاخرتي . فقال له مالك : ما كنت لأحرم نفسي ولا عيالي وأعطيك مالي !! .

قال الشيباني أتى حاتم ابن عم له يقال له (وهمٌ) بن عمرو وكان بينه وبين حاتم مجافاة ومقاطعة فقالت امرأته إي وهم : هذا والله أبو سنانة حاتم قد طلع . فقال : ما لنا ولحاتم اثبتي النظر فقالت : ها هو . قال : ويحك هو لا يكلني فما جاء به إليّ ؟ فنزل حتى سلّم عليه فرد سلامه وحياه ، ثم قال له : ما جاء بك يا حاتم قال : فاخرت على حسبك وحسبي ، قال في الرحب والسعة هذا مالي قال وعدته يومئذٍ تسعمائة بعير فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد ! .

ثم قال حاتم :

ألا أبلغا وهْمَ بن عمرو رسالة ... فإنك أنت المرء بالخير أجدر
رأيتك أدنى الناس منا قرابة ... وغيرك منهم كنت أحبو وأنصر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ... بموت فكن يا وهم ذو[1] . يتأخر

ثم قال إياس لأهله : احملوني إلى الملك (وكان إياس مريضاً) فحمل حتى أدخل عليه . فقال : أنعم صباحاً . أبيت اللعن . فقال النعمان : وحياك إلهك . ثم قال إياس : إن أصحابك الذين تمدهم بالمال والخيل يريدون أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين ولم يشعروا أن بني حية بالبلد فإن شئت والله ناجزناك حتى يسفح الوادي دماً فليحضروا المفاخرة غداً بمجمع العرب . فعرف النعمان الغضب في وجهه وكلامه فقال له النعمان : يا أحلمنا لا تغضب فإني سأكفيك . . وأرسل النعمان إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه : انظروا ابن عمكم حاتماً فارضوه فوالله ما أنا الذي أعطيكم مالي تبذرونه وما أطيق بني حية فخرج بنو لام إلى حاتم فقالوا له : أعرض عن هذه المفاخرة ندع أرش (دية) أنف ابن عمنا ، وتمت المصالحة كما أراد حاتم .

أقبل ركب من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان فلقوا حاتماً فقالوا له : إنا تركنا قومنا يثنون عليك خيراً وقد أرسلوا إليك رسولاً برسالة . قال : وما هي ؟ فأنشده الأسديون شعراً لعبيد ولبشر يمدحانه وأنشد القيسيون شعراً للنابغة . . فلما أنشدوه قالوا : إنا نستحي أن

(١) (ذو) على لغة طيء اسم موصول بمعنى الذي .

نسألك شيئاً وإن لنا لحاجة . قال : وما هي ؟ قالوا : صاحب لنا قد أرجل (أي لم يكن عنده شيء يركب عليه) فقال حاتم : خذوا فرسي هذه فاحملوا صاحبكم عليها فأخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت فاتبعته الجارية . فقال حاتم : ما تبعكم من شيء فهو لكم فذهب ركب بني أسد بالفرس والفلو والجارية !! .

قال ملحان ابن أخي مارية امرأة عن حاتم : قلت لمارية يا عمة حديثيني ببعض عجائب حاتم . فقالت : كل أموره عجائب . فعن أي شيء تسأل ؟ قال : حدثيني ما شئت ، قالت : أصابت الناس سنة فأذهبت الخف والظلف (الخف : الجمال والظلف كالماعز والغنم) وفي ليلة قد أسهرنا الجوع فأخذ حاتم عدياً وأخذت أنا سنانة وجعلنا نعللهما حتى ناما ثم أقبل عليّ يحدثني ويعللني بالحديث كي أنام فأشفقت عليه لكثرة ما لاقى من الجهد والتعب فأمسكت عن كلامه لينام هو فقال لي : أنمت مراراً ؟ فلم أجبه فسكت فنظر في فتق الخباء فإذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فإذا امرأة فقال : ما هذا ؟ قالت : يا أبا سنانة أتيتك من عند صبية يتعاوون كالذئاب جوعاً فقال : أحضريني صبيانك فوالله لأشبعنهم ، قالت بماذا يا حاتم ؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلّا بالتعليل . فقال : فوالله لأشبعن صبيانك مع صبيانها . . فلما جاء المرأة بصبيانها قام إلى فرسه فذبحها ثم قدح ناراً ثم دفع إليها سكيناً وقال : اشتوي وكلي مع صبيانك ثم التفت إليّ وقال : أيقظي صبيانك قالت : فأيقظتهم . ثم قال : والله إن هذا للؤم تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم فجعل يأتي الحي بيتاً بيتاً فيقول : انهضوا عليكم بالنار . فاجتمعوا حول تلك الفرس وتقنع بكسائه فجلس ناحية ، فما

أصبحوا ومن الفرس على الأرض لا كثير ولا قليل إلاّ عظم وحافر وإنه لأشد جوعاً منهم وما ذاق شيئاً منها أبداً !! .

« ٢٠ »

امرؤ القيس

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحرث بن عمرو بن حجر وهو من قبيلة كندة . . .

قال ابن السكيت : ولما طعن الأسدي حجراً ولم يجهز عليه أوصى ودفع وصيته إلى رجل وقال له : انطلق إلى ابني نافع ـ وكان أكبر أولاده ـ فإن بكى وجزع فاتركه ومرّ على الأولاد واحداً واحداً حتى تصل إلى امرىء القيس وكان أصغرهم سناً ، فأي واحد من الأولاد لم يبك ولم يجزع فادفع إليه سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي ، وكان قد بيّن حجر في وصيته من قتله وكيف كان خبره . .

فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه الكبير فأخذ التراب ووضعه على رأسه ثم ذهب إليهم واحداً واحداً وكلهم جزعوا وفعلوا مثل فعل

نافع حتى أتى امرأ القيس صغير الأولاد فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعب معه بالنرد فقال له الرسول . قتل أبوك حجر فلم يلتفت إلى قوله فأمسك نديمه فقال له امرؤ القيس : اضرب فضرب حتى إذا فرغ قال : ما كنت لأفسد عليك دستك (أي لعبتك) . . ثم تفرغ للرسول وسأله عن كل شيء حدث مع أبيه والأسدي فأخبر الرجل تفصيلاً . فقال : الخمر عليّ حرام والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأجز نواصي مائة وفي ذلك قال :

أرقتُ ولم يأرق لما بي نافعُ   وهاج لي الشوقَ الهموم الروادع

وكان حجر أبوه قد طرد امرأ القيس وأقسم أن لا يقيم معه لأنه شاعر والملوك يرون ذلك مخلاً بكرامتهم . . وكان امرؤ القيس غير ذلك يمشي ويعاشر شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل فإذا صادف غدير ماء أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم . . وإذا خرج إلى الصيد تصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنتهم مغنية ولا يزال كذلك في الغدير حتى ينفذ ماؤه . . ثم ينتقل فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بمكان يقال له : (دمّون) من أرض اليمن ، أتاه بالخبر رجل من بني عجل يقال له : عامر الأعور ولما أتاه بذلك قال :

تطاول الليل على دمّونْ   دمون إنا معشر يمانونْ

وإننا لأهلها محبونْ

ثم قال عن أبيه : ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً ، لا صحوَ اليوم ولا سكر غداً . اليوم خمر وغداً أمر فذهبت مثلاً ثم قال :

خليليّ لا في اليوم مصحى لشارب ولا في غد إذ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعاً فلما صحا أقسم أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهّن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره ، فلما دخل الليل رأى برقاً فقال :

أرقت لبرق بليل أهلْ يضيء سناء بأعلى الجبلْ
أتاني حديث فكذبته بأمر تتزعزع منه القليل
بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواه جلل
فأين ربيعة عن ربهم وأين تميم وأين الخول
ألا يحضرون إلى بابه كما يحضرون إذا ما أكلْ

ثم إن امرأ القيس ارتحل حتى نزل بكراً وتغلب فسألهم النصر على بني أسد وبعث العيون ليأتوه بخبرهم .. ولما كان الليل قال علباء : يا بني أسد تعلمون والله أن عيون امرىء القيس قد أتتكم ورجعت إليه بخبركم فارحلوا بليل ولا تعلموا بني كنانة ففعلوا .. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكرٍ وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة وهو يحسبهم بني أسد فوضع السلاح فيهم وقال : يا لثارات الملك الهمام فخرجت إليه عجوز من بني كنانة فقالت : أبيت اللعن ، لسنا لك بثأر نحن من كنانة فدونك ثأرك فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس فتبع بني أسد ففاتوه ليلتهم فقال :

ألا يا لهف هند إثر قوم همُ كانوا الشفاء فلم يصابوا

وأخيراً أدركهم بعد ملاحقة شاقة تعب فيها الفرسان والأفراس

وقاتلهم حتى كثرت القتلى والجرحى فيهم وحجز الليل بينهم وهرب بنو أسد . ولما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وهم هاربون وقالوا لامرىء القيس : قد أصبت ثأرك . قال والله : ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحداً . قالوا : بلى أصبت ولكنك رجل مشؤوم وكرهوا بعد ذلك القتال وانصرفوا عنه . . ومضى هارباً لوجهه حتى لحق بحمير . ولما وصل اليمن استنصر إحدى القبائل فأبوا أن ينصروه ، وقالوا له : هم إخواننا وجيراننا . . ثم قصد امرؤ القيس مرثد الخير بن ذي جدن الحميري وكانت بينهما قرابة فاستنصره فأمده بخمسمائة رجل من حمير ومات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم . . وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يقال له : قرمل بن الحميم وكانت أمه سوداء فردد امرأ القيس وطول عليه حتى هم بالإنصراف عنه وقال :

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا ... وإذ نحن لا ندعى عبيداً لقرمل

فأنفذ له جيشاً غير الجيش الذي كان يرجوه من مرثد وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من قبائل العرب رجالاً فسار بهم إلى بني أسد ومر بمكان فيه صنم للعرب يعظمونه يقال له (ذو الخلصة) فاستقسم عنده بقداح وهي ثلاثة : الأمر والناهي والمتربص فأجالها فخرج (الناهي) وأجالها ثانية فخرج (الناهي) وأجالها ثالثة فخرج (الناهي) فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتني !! ثم خرج فظفر ببني أسد . .

قالوا وألح المنذر في طلب امرىء القيس ووجه الجيوش في طلبه

من إياد وبهراء وتنوخ ولم تكن لهم طاقة ومده أنوشروان بجيش من الأساورة فسرحهم في طلبه . . وتفرق حمير ومن كان معه عنه فنجا في عصبة من بني آكل المرار حتى نزل بالحرث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ومع امرىء القيس أدراع خمسة : العصفاضة والضافية والمحصنة والخربق وأم الذبول كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكاً عن ملك . وما أن أقاموا عند الحرث بن شهاب حتى بعث إليه المنذر مائة من أصحابه بوعده بالحرب إن لم يسلم إليه بني آكل المرار فأسلمهم ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحرث وبنته هند ـ بنت امرىء القيس ـ والأدرع والسلاح ومال كان بقي معه فخرج على وجهه حتى وقع في أرض طيء . . نزل امرؤ القيس عند رجل من بني فزارة يقال له عمرو بن جابر فطلب منه الجوار فقال له الفزاري : يا ابن حجر إني أراك في خلل من قومك وإنك من أهل الشرف وقد كدت بالأمس تؤكل في دار طيء وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم من الأعداء وبينك وبين أهل اليمن ما تعرفه من تباعد . وجئت قيصر وجئت النعمان فلم تر ما يشفي علتك أفلا أدلك على بلد يفيدك ؟ قال امرؤ القيس : من هو ؟ وأين منزله ؟ قال الفزاري : السموأل بتيماء وهو في حصن حصين وحسب كبير . فقال له امرؤ القيس : وكيف لي به ؟ قال : أوصلك من يوصلك إليه فصحبه إلى رجل من بني فزارة يقال له الربيع الفزاري من الذين يأتون السموأل فيحمله ويعطيه فلما صار إليه قال له الفزاري : إن السموأل يعجبه الشعر فتعال نناشد له أشعاراً فقال امرؤ القيس : قل أنت حتى أقول فقال الربيع قصيدة طويلة مطلعها :

قــل للمنيــة أي حيــن نلتقــي		بفناء بيتك في الحضيض المزلق

ومنها :

عـرفـت لـه الأقـوام كـل فضيلـة		وحوى المكارم سابقاً لم يسبق

وقال امرؤ القيس قصيدة مطلعها :

طـرقتـك هنـد بعـد طـول تجنـب		وهنـا ولـم تـك قبـل ذلـك تطـرق

ثم مضى القوم حتى قدموا على السموأل فأنشده الشعر وعرف لهم حقهم فأنزل المرأة في قبة خاصة وأنزل القوم في مجلس محترم فأقام عنده وقتاً . . ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحرث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر فاستنجد رجلاً واستودع عنده المرأة والأدراع والمال وأقام معها يزيد بن الحرث بن معاوية ابن عمه فمضى حتى انتهى إلى قيصر فقبله وأكرمه وكانت له عنده منزلة فاندس رجل من بني أسد يقال له : الطماح ، وكان امرؤ القيس قد قتل أخاً له من بني أسد وهرب إلى بلاد الروم فأقام مستخفياً .

ثم إن قيصر ضم إليه جيشاً كثيفاً وفيهم جماعة من أبناء الملوك فلما فصل قال لقيصر قوم من أصحابه إن العرب قوم غدر ولا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه . . وقال ابن الكلبي : بل قال له الطماح : إن امرأ القيس غوي عاهر وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بهـا فـي العـرب فيفضحهـا ويفضحـك فبعـث إليـه حينئـذٍ بحلـة وشـي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له : إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت

ألبسها تكرمة لك فإذا وصلت إليك فالتبسها باليمن والبركة واكتب إليّ بخبرك من منزل إلى منزل فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها فأسرع فيه السم وسقط جلده فلذلك سمي ذا القروح . وقال في ذلك :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني مما يلبّس أبؤسا

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

ولما وصل إلى بلدة من بلاد الروم تدعى (أنقرة) احتضر بها ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له : عسيب فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال :

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة .

مقتل حجر أبي امرىء القيس :

كان سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائهم وغلبوهم في كل الأمور ، وأكل القوي الضعيف . فنظر العقلاء في أمرهم فرأوا أن يملكوا عليهم ملكاً يأخذ للضعيف من القوي . . فنهاهم العرب عن ذلك وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون فذهبوا إلى بعض تبابعة اليمن . وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين وطلبوا منه أن يملّك عليهم ملكاً فملّك عليهم حجر بن عمر أبي امرىء القيس فرجع وأغار ببكر فانتزع ما كان بأيدي اللخميين من أرض بكر . ولما مات صار عمرو بن حجر ملكاً بعد أبيه وكان أخوه

معاوية على اليمامة فلما مات عمرو ملك بعده ابنه الحارث وكان شديد الملك . فلما ملك قُباذ بن فيروز الفرس خرج في أيامه مزدك فدعا الناس إلى الزندقة فأجابه قباذ إلى ذلك وكان المنذر ابن ماء السماء عاملاً للأكاسرة على الحيرة ونواحيها فدعاه قباذ إلى الدخول معه فامتنع . فدعا الحارث بن عمرو إلى ذلك فأجابه فاستعمله على الحيرة وطرد المنذر عن مملكته . . وبقوا كذلك إلى أن ملك كسرى أنو شروان بن قباذ بعد أبيه فقتل مزدك وأصحابه وأعاد المنذر ابن ماء السماء إلى ولاية الحيرة وطلب الحارث بن عمرو وكان بالأنبار وفيها منزله فهرب بماله وهجانته وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفساً منهم فيهم عمرو ومالك أبناء الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وفيهم يقول عمرو بن كلثوم :

فـآبـوا بـالنهـاب وبـالسبـايـا وأبنــاء الملــوك مصفــدينــا

وفيهم يقول امرؤ القيس من قصيدة :

ملـوك بنـي حجـر بـن عمـرو يســاقــون العشيــة يقتلــونــا
فلـو فـي يـوم معـركـة أحيـوا ولكــن فـي ديـار بنـي مـرينـا
ولـم تغسـل جمـاجمهـم بغسـل ولكــن فـي الـدمـاء مـرملينـا
تظــل الطيـر عــاكفــة عليهـم وتنتـزع الحـواجـب والجفـونـا

وأقام الحارث بديار كلب وتدعي كلب أنهم قتلوه . .

ولما كان الحارث بالحيرة أتاه أشراف عدة قبائل من نزار فقالوا : إنا في طاعتك وقد وقع بيننا من الشر ما تعلم ونخاف الفناء فوجه معنا

بنيك ينزلون فينا فيكفون بعضاً عن بعض ففرّق أولاده في قبائل العرب فملّك ابنه حجراً على بني أسد وغطفان وملّك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها ومعها غيرها وملّك ابنه معدي كرب على قيس عيلان وطوائف غيرهم وملّك ابنه سَلَمة على تغلب والنمير بن فاسط وبني سعد التميمي . . . وبقي حجر في بني أسد دهراً يأخذ منهم ضرائب سنوية . وفي مرة بعث إليهم من يجبي ذلك منهم وكانوا بتهامة فطردوا رسله وضربوهم فبلغ ذلك حجراً فسار إليهم بجند من القبائل فأخذ أسيادهم وخيارهم وجعل يقتلهم بالعصا وأباح الأموال وحبس من أشرافهم جماعة ، منهم عبيد بن الأبرص الشاعر فقال شعراً يستعطفه فرّق لهم وأرسل من يردهم . . وبينا هم في هذه الحالة من الحقد على حجر قال كاهنهم عوف بن ربيعة قال ما معناه : من هو الجبار الذي سينقلب البغي وهو غداً أول من يسلب ؟ فقال أصحابه : ومن هو ؟ قال لولا خوفي لأخبرتكم أنه حجر ؟ . فركبوا حالاً كل صعب وذلول حتى بلغوا إلى عسكر حجر فهجموا عليه في قبته فقتلوه . طعنه علباء بن الحارث الكاهلي فقتله وكان حجر قتل أباه فلما قتل قالت بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس أنتم أخواننا وبنو عمنا والرجل بعيد النسب منا ومنكم وقد رأيتم سيرته وما كان يصنع بكم هو وقومه فانتهبوه فشدوا على هجانته فانتهبوها ولفوه في ربطة بيضاء وألقوه على الطريق . . وقيل : إن حجراً أخذ أسيراً في معركة شديدة انتهت بانتصار بني أسد على قومه وجعل في قبة فوثب عليه علباء فضربه بحديدة كانت معه لأنّ حجراً كان قد قتل أباه وقد جرح ولم يقض عليه في تلك الساعة فأوصى حجر بوصية طويلة ذكرناها في خبر امرىء

القيس ولده ولا حاجة لإعادتها .

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث الغساني إلى السموأل وطالبه بأدراع امرىء القيس وكانت مائة درع وبماله عنده فلم يعطه فأخذ الحارث ابناً للسموأل فقال : إما أن تسلم الأدراع وإما قتلت ابنك فأبى السموأل أن يسلم إليه شيئاً فقتل ابنه فقال السموأل في ذلك :

وفيت بأدرع الكندي إني	إذا ما ذم أقوام وفيت
وأوصى عاديا بألا	تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى لي (عاديا) حصناً حصينا	وماء كلما شئت استقيت

« ٢١ »

يوم البردان

إن زياد بن الهبولة ملك الشام وكان من سليح فأغار على حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي ملك عرب نجد ونواحي العراق وهو يلقب آكل المرار وكان حجر قد أغار في كندة وربيعة على البحرين فبلغ زياداً خبرهم فسار إلى أهل ربيعة وأموالهم فأخذ الحريم والأموال وسبى فيهم هنداً بنت وهب بن الحارث وسمع حجر وكندة وربيعة بغارة زياد فعادوا عن غزوهم في طلب ابن الهبولة ومع حجر أشراف ربيعة عوف بن محلّم وعمرو بن أبي ربيعة وغيرهما فأدركوا عمراً بالبَرَدَان فنزل حجر في سفح جبل ونزلت بكر وتغلب وكندة مع حجر دون الجبل على ماء يقال له : حفير . . فتعجل عوف وعمرو وقالا لحجر : إنا متعجلان إلى زياد لعلنا نأخذ منه بعض ما أصاب منا فسارا إليه وكان بينه وبين عوف إخاء فدخل عليه وقال له : يا خير الفتيان اردد عليّ امرأتي أمامة فردها عليه . . وقال عمرو بن أبي ربيعة

لزياد : يا خير الفتيان اردد عليّ ما أخذت من إبلي فردها عليه وفيها فحلها فنازعه الفحل إلى الإبل فصرعه عمرو . فقال له زياد : يا عمرو لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم ، أنتم ! فقال له عمرو : لقد أعطيت قليلاً وسميت جليلاً وجررت على نفسك ويلاً طويلاً ولتجدنّ منه ولا والله لا تبرح حتى أروي سناني من دمك . .

ثم أمر حجر فنودي في الناس وركب وسار إلى زياد فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم زياد وأهل الشام وقتلوا قتلاً ذريعاً . واستفذت بكر وكندة ما كان بأيديهم من الغنائم والسبي . وعرف سدوس زياداً فحمل عليه واعتنقه فصرعه وأخذه أسيراً فلما رآه عمرو بن ربيعة حسده فطعن زياداً فقتله فغضب سدوس وقال : قتلت أسيري وديته دية ملك فتحاكما إلى حجر فحكم على عمرو وقومه لسدوس بدية ملك وأعانهم من ماله وأخذ حجر زوجته هنداً فربطها في فرسين ثم ركضهما حتى قطعاها ويقال بل أحرقها . .

وكان حجر أرسل سدوس بن شيبان وصليع بن عبد غنم يتجسسان له الخبر ويعلمان علم العسكر فخرجا حتى هجما على عسكره ليلاً وقد قسم الغنيمة وجيىء بالشمع فأطعم الناس تمر وسمناً .

ثم انصرف صليع إلى حجر فأخبره بعسكر زياد وأراه التمر .

وأما سدوس فقال : لا أبرح حتى آتيه بأمر جلي وجلس مع القوم يستمع إلى ما يقولون . وهند امرأة حجر خلف زياد . فقالت لزياد : إن هذا التمر أهدي إلى حجر من (هجر) والسمن من (دومة الجندل) .

ثم تفرق أصحاب زياد عنه فضرب سدوس يده إلى جليس له وقال له : من أنت ؟ مخافة أن يستنكره الرجل فقال : أنا فلان ابن فلان .

ودنا سدوس من قبة زياد بحيث يسمع كلامه . ودنا زياد من امرأة حجر فقبلها وداعبها وقال لها : ما ظنك الآن بحجر ؟ فقالت : ما هو ظن ولكنه يقين إنه والله لن يدع طلبك حتى تعاين القصور الحمر ، يعني قصور الشام وكأني به في فوارس من بني شيبان يذمرهم ويذمرونه وهو شديد الطلب تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مراراً فالنجاة النجاة فإن وراءك طالباً حثيثاً وجمعاً كثيفاً وكيداً متيناً ورأياً صلباً فرفع يده فلطمها ، ثم قال لها : ما قلت هذا إلاّ من عجبك به وحبك له فقالت : والله ما أبغضت أحداً بغضي له ولا رأيت رجلاً أحزم منه نائماً مستيقظاً إن كان لتنام عيناه فبعض أعضائه مستيقظ . .

وكل ما جرى كان يسمعه دسوس فسار حتى أتى حجراً فلما دخل عليه قال :

أتاك المرجفون بأمر غيب على دهش وجئتك باليقين

فمن يك قد أتاك بأمر لبس فقد آتي بأمر مستبين

ثم قصّ عليه ما سمع فجعل حجر يعبث بالمرار ويأكل منه غضباً وأسفاً ولا يشعر أنه يأكله من شدة الغضب فلما فرغ سدوس من حديثه وجد حجر المرار فسمي يومئذٍ : آكل المرار . والمرار هو نبت شديد المرارة لا تأكله دابة إلاّ قتلها .

المصادر الأساسية

١ ـ تاريخ العلامة ابن خلدون.

٢ ـ تاريخ الطبري.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي.

٤ ـ الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير.

٥ ـ الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني.

٦ ـ مروج الذهب ـ المسعودي.

٧ ـ سيرة المصطفى ـ العلامة السيد هاشم معروف الحسني.

٨ ـ سيرة الأئمة الاثني عشر ـ العلامة السيد هاشم معروف الحسني.

٩ ـ الارشاد ـ للعلامة الشيخ المفيد.

١٠ ـ الإمامة والسياسة ـ لابن قتيبة.

١١ ـ سيد المرسلين ـ الشيخ السبحاني.

الفهرس